المكتبة الثقافية
٣٥

إخناتون

الدكتور عبد المنعم أبو بكر

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

١٥ ابريل ١٩٦١

المكتبة الثقافية
٣٥

إخناتون

الدكتور عبد المنعم أبو بكر

١٥ أبريل ١٩٦١

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١



مقدمة

فى أحد أيام عام ١٣٨٢ قبل الميلاد رزق الزوجان الملكان « أمنحوتب/٣ » و « تى » بولد ثان سموه أمنحوتب، وكانت ولادته بمثابة فأل حسن، وطارت الأنباء إلى أرجاء الأمبراطورية المصرية تعلن هذا الحادث، خاصةوان ابنهماالأول واسمه «تحوتمس» كان قد واتته منيته وهو فى ريعان شبابه، بل وفى باكورة رجولته. هذا الطفل الملكى هو « أمنحوتب الرابع » الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه، واستطاع ان يسجل على صفحاته اسمه مصحوباً بعبارات التبجيل والتقدير، هذا هو « إخناتون » أول من نادى

« بالتوحيد » ، ولم تكن دعوته سلمية ؛ بل اقترنت بأعمال العنف والقسوة ؛ إذ ارتطمت دعوته بعدو جبار عات آمون وكهنته ، قبع فى معبده الضخم « الكرنك » ودانت له طيبة ، وسيطر على أقطار الإمبراطورية من أعالى الفرات شمالا إلى أقاصى السودان جنوبا . هذا هو إخناتون أول من بشر الناس بإله واحد لاشريك له وقال عنه فى نشيده : « أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً » ، بشرهم به وأراد ألا يكون مسيطراً على المصريين وحدهم ، بل جعله إلها للأمم جميعاً ، إذ ذكر فى نشيده البلاد التى يوليها الإله عنايته قبل أن يذكر مصر ، وكان هذا الإله ليس مجسما فى صورة البشر بل كان هو الحق خالق حرارة الشمس ومغذيها .

هذا هو الرجل الذى سنترجم له فى هذه العجالة ، نبدأ بسرد موجز لأحداث عصره التى مهدت لظهوره ، ثم نتحدث عن حياته والبيئة التى نشأ وترعرع فيها ، وفى آخر الأمر نحلل دعوته للتوحيد وتأثير هذه الديانة على مظاهر الحضارة المصرية فى ذلك الحين .

العالم القديم

فى القرن السادس عشر قبل الميلاد

تعرض العالم القديم منذ القرن العشرين قبل الميلاد لهجرات متعددة ، قامت بها قبائل جبلية غير متمدنة تسكن المناطق الوسطى من آسيه ، وتعرف فى التاريخ باسم القبائل « الهندية — أوروبية » ، وانحدرت من مناطقها الجبلية فى أوقات متفاوتة تتجه نحو الجنوب والغرب ، تسعى وراء أوطان جديدة تفيض بخير أوفر مما تقدمه لهم بيئتهم الجبلية . تحركت هذه القبائل (رجالا ونساء واطفالا) مصطحبين معهم متاعهم وحيواناتهم ، محملين إياها على عربات خشنة الصنع ثقيلة تجرها الخيول ، واتجه البعض منهم نحو بلاد أفغانستان ، ووصلوا إلى وادى السند مخترقين ممر خيبر ، الذى كان ولا يزال المنفذ الوحيد بين اواسط آسيه الجبلية وبين هذه المنطقة ، واستطاعت جحافلهم أن تتغلب على أهل البلاد وأصبحت هى القوة الحاكمة فيها بل وقضت على الحضارة القديمة هناك. وفى نفس الوقت كانت فلول منهم (عرفها التاريخ باسم القبائل « الكاشية ») قد وصلت إلى أواسط العراق ، وهاجمت مدينة بابل بعد موت

« حامورابى » بثمانى سنوات ، فقضت على الأسرة الملكية ، وتولت فئة منهم الحكم فى بابل لفترة من الزمن ، كما نزل البعض الآخر إلى المناطق الشمالية من العراق ، واستقروا فى وادى الفرات الأعلى ، وكونت هناك دولة « الميثانى » التى امتدت حتى قاربت حدودها الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط ، وهؤلاء عرفهم التاريخ تحت اسم « الحوريين » . وهناك أيضاً القبائل التى استمرت فى هجرتها نحو الغرب ، ووصلت إلى آسيه الصغرى واستقرت فيها ، وظهرت فى التاريخ باسم « الحيثيين » . ومنها أخيراً تلك الفلول التى استمرت فى هجرتها البطيئة نحو الجنوب ، ووصلت إلى مناطق سورية وفلسطين ، وبعد أن استقرت فيها بعض الوقت وامتزجت بأهلها ، عاودت التحرك نحو مصر ، التى كانت تعانى التفكك والاضمحلال فى عصر الأسرة الثالثة عشرة ، فدخلت الدلتا حوالى عام ١٧١٠ ق ٠ م ، واستقرت فيها بل ومدت سلطانها على البلاد حتى أسيوط جنوباً ، وعرفهم التاريخ تحت اسم « الهيكسوس » .

وهكذا نستطيع أن نؤكد أن العالم القديم إبان عدة قرون من الزمان كان يغلى كالمرجل ، وسادت القلاقل معظم مناطقه ، وتعددت الغزوات ، وظهرت دول فتية جديدة حاولت ان تثبت

وجودها على المسرح السياسى الدولى ؛ ولكنها مالبثت ان اختفت وحلت محلها قوى جديدة . ويجب علينا أن نذكر هنا ان هذه القبائل « الهندية — أوروبية » المتبربرة استطاعت أن تجتاح كل المناطق التى وصلت إليها ، وأن تتغلب على كل القوى التى تصادمت معها وذلك بفضل العربة والحصان ، حقاً لقد كان استعمالهما فى أول الأمر لحمل النساء والأطفال والمتاع ، ولكن ما لبث المغيرون ، وهم أهل حرب ونضال ، أن عرفوا القوة الضاربة وتأثيرها فى نفوس الناس ، إذا ما استعملوا عربة خفيفة يجرها جوادان ، وعرفوا أن مئات من هذه العربات كفيلة لسحق أكبر قوة حربية تقف أمامهم . لقد كان لاستعمال هذه الأداة الحربية الجديدة أكبر الأثر فى تغيير اساليب الحرب يومئذ فى الدنيا .

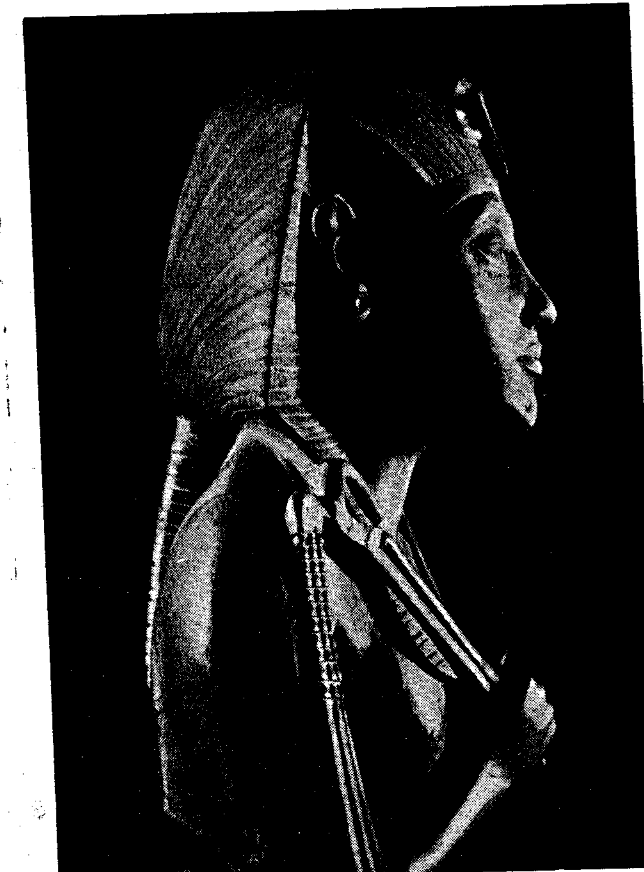
هاجمت جحافل الهكسوس أرض مصر فى اواخر عصر الدولة الوسطى ، وكانت كما أسلفنا القول قد اخذت للمرة الثانية تضمحل وتكبو كبوتها الطويلة تحت حكم ملوك الأسرة الثالثة عشرة ، فلم يجد العدو المغير أية مقاومة عند دخوله أرض الدلتا من الشرق ، وذكر التاريخ لهذا الشعب قسوة لا مثيل لها فى معاملة المصريين ، ولم يُعر الحضارة المصرية اى احترام ،

وقضى على كل المثل العليا فى الدين والمعتقدت . كان هذا الغزو سيطرة همجية ، وأقام الغزاة وحدهم فى معسكرات محصنة ، وأهملوا كل شيء فى البلاد ، وكان همهم فرض الضرائب الفادحة على المناطق التى أخضعوها . كان احتلال الهكسوس لمصر أول إذلال عرفته فى تاريخها ، وكان تكبرهم قاسياً على مشاعر المصرى الذى كان يعرف تماما أنه أرقى حضارة وأسمى مكانة . مرت السنون وتعاقبت الأجيال والدماء تغلى فى عروق المصريين ينتظرون الفرصة لطرد الغزاة ، وواتتهم الفرصة على ايدى بعض الرجال الأحرار من أهل طيبة الذين هبوا لتخليص مصر من هذا الوباء والنجاة بها من قبضة المستعمر الذى أفسد عليهم الحياة ، وكتب على أبنائهم الذلة والمسكنة . وهكذا رفعت أسرة عتيدة من اسرات طيبة علم الثورة ، أعلنها سافرة واحد من أعضائها البارزين ، واسمه « سقنن – رع » ، ما لبث أن سقط فى حومة الوغى ، وعُثر على جثة هذا البطل ، ولا زالت تحتفظ بآثار الطعنات القاتلة التى اودت بحياته . وما كاد علم القيادة ينفلت من « سقنن رع » حتى تلقفه ابنه « كامس » ومن بعده « أحمس » الذى تهيأ له تشتيت العدو ، وإجلاؤه تماماً عن أرض مصر عام ١٥٨٠ ق . م ، بعد ان بقى فيها أكثر من قرن ونصف .



مصر تبني مجدها

لم تكن مهمة أحمس يسيرة هينة ، بل كانت المخاطرة التى أقدم عليها قاسية ، على الرغم من الجهود التى بذلها من سقبوه فى المعركة ، فلا غرابة إذا وجدنا هذا البطل يسلك مسلكا جديدا ، ويتبع سياسة أخرى ؛ هى سياسة جمع كلمة الشعب وإذكاء روح الجندية بين صفوفه ، وتكوين جبهة عسكرية لا انفصام فيها ولا تخاذل ، وساعدته الظروف على تحقيق سياسته دون عناء ، إذ كانت عوامل الثورة تسود مصر منذ عشرات السنين ، كما استطاع أهل الصعيد منذ ايام « سقنن – رع » أن يحرزوا بعض الانتصارات ، وأن يتدربوا على القتال ويتقنوا اساليبه ، وأن يخبروا أدوات الحرب الجديدة التى جلبها الهكسوس معهم ، فحذقوا استعمال الأقواس الضخمة ذات المرمى البعيد كما فى شكل (١) ، كما تدربوا على رياضة الخيل ، واطمأنوا إلى ركوب



(شكل ١) إخناتون فى أول حياته التزم قواعد الفن فى تمثيله، فهو يبدو فى هذا التمثال ملكا ممتلئا صحة وشبابا ـ يقبض بيمينه على رمزى الملكية ويغطى رأسه بالمنديل الملكى التقليدى (متحف اللوفر بباريس) .

عربات الحرب الخفيفة السريعة ، وهكذا اندفع المصريون فى تيار الجندية وتملكتهم نزعات الكفاح والنضال . لقد كانت ثورة اجتماعية تهدف إلى تمجيد الجندية ، كما عرف المصرى فى ذلك الوقت أن فى ميدانها متسعا لأعمال البطولة ، وأن الحاكم كان يعترف بها ويكافىء عليها مهما كانت الطبقة التى ينتمى إليها البطل ، فلم يسجل التاريخ القديم إقبالا من مختلف طبقات الشعب على الانخراط فى سلك الجندية بمثل ما سجله فى تلك الحقبة ، واستغل « أحمس » هذه الروح الجديدة ، بل أذكاها ، فتجمعت من حوله أفواج الشعب ، كلهم حماسة وإصرار على هدف واحد ، ألا وهو تطهير مصر تطهيرا كاملا من المستعبد المستبد . واندفع الجيش المصرى يطارد عدوه الذى ولى منه الأدبار إلى فلسطين وتحصن فى إحدى المدن فى جنوبها وهى « شاروهن » وأدرك « أحمس » أنه لن يكون لعمله قيمة عسكرية ، إذا ترك العدو قويا على مقربة من حدوده ، واستطاع بعد حصار دام ثلاث سنوات أن يقتحم حصن « شاروهن » ويطرد العدو منه ، ولم يتركه بل اندفع متعقبا إياه ، ناشرا الفزع بين صفوفه أينما حل حتى أقصاه إلى حدود فينيقية .

لقد كان نصر «احمس» نصرا مبينا ، فتح امامه آفاقا واسعة ،

إذ تمكن من وضع الأساس لإمبراطورية مصرية مظفرة ، امتدت فى عصور خلفائه فيما بين أعالى الفرات فى الشمال والشلال الرابع فى الجنوب .

تولى مقاليد الأمور فى مصر بعد « أحمس » شخصيات فذة من أسرته ، تسمى بعضهم باسم « امنحوتب » وآخرون تسموا باسم « تحوتمس » ، وقد ساهم كل منهم فى توطيد أركان الإمبراطورية فى كل مكان . وتتسم الفترة الأولى من عصر الأسرة الثامنة عشرة بكثرة الحروب إذ حوى العالم القديم دولا فتية نافست مصر وسعت إلى تحطيم قوتها ، وتلك كانت دول « الميتانى » « وآشور » و « الحيثيين » و « بابل » . وليس من شك فى أن ملوك هذه الفترة وهم أمنحوتب الأول وتحوتمس الأول ، وتحوتمس الثانى ، وتحوتمس الثالث ، وامنحوتب الثانى ، « وتحوتمس الرابع » قد بذلوا جهودا جبارة وخرجوا على رأس جيوشهم مرارا وتكرارا إلى ربوع آسيا الغربية لتثبيت أقدام هذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء . ويجب علينا أن نبرز هنا أن مصر لم تؤسس إمبراطوريتها هذه بعد طرد الهكسوس مباشرة ، فقد كانت الحملات الحربية التى خرج بها كل من « أحمس » و « أمنحوتب الأول » و « تحوتمس الأول »

وتحوتمس الثانى ذات هدف عسكرى لا يزيد على تأديب بعض الدويلات التى أرادت مناواة النفوذ المصرى ، وتأليب المناطق الخاضعة لسلطانها ، ونكاد نعتقد أن فكرة احتلال آسيا الغربية لتكون إقليما تحت السيادة المصرية لم تنبت وتنفذ على نطاق واسع إلا فى عصر الملك تحوتمس الثالث أهم أعلام هذه الإمبراطورية .

لقد استحق بحق أن يسجل إسمه بين قادة العالم القديم الأفذاذ ، لقد قاد الجيش المصرى فى السنة الأولى من حكمه وخاض غمار معركة رهيبة عند « مجدو » وانتصر فيها انتصارا عظيما . واتبع هذا النصر بحملات أخرى بلغت ست عشرة حملة حقق فيها جميع أغراضه الحربية ، وعبرت جيوشه نهر الفرات ، ولعل من الجدير أن نذكر هنا مدى عبقرية هذا الرجل الذى سار بجيشه ليهاجم عدوا تقع بلاده على الشاطىء الشرقى لنهر الفرات ، إنه زوّد نفسه بسفن ضخمة شيدها من خشب الأرز ، وحملها على عربات تجرها الماشية ، ووصل بها إلى شاطىء الفرات ، واستخدمها لنقل جيشه عبر مجرى النهر ، وبذلك استطاع ان يطارد ملك الميتانى داخل مملكته . حدث هذا فى حملته الثامنة .

وعرف هذا الرجل أيضا أهمية القوة البحرية ، فشيد اسطولا ضخما ، وانشأ مراكز تموين فى جميع موانى الساحل الفينيقى ،

ويقول فى نصوصه « ومون جلالته كل ميناء وصل إليه بالخبز الجيد ، وأنواع الخبز الأخرى ، وبزيت الزيتون والبخور والنبيذ والعسل والفواكه » .

أقام تحوتمس الثالث فى آسيا الغربية حكماً عسكرياً وسياسياً ، وعين مندوبا ساميا للمنطقه كلها ، كما عين مفتشين مقيمين فى المدن الهامة للإشراف على الأمراء المحليين ، وجعل من « غزة » المركز الرئيسى للإدارة ، وعرف فى نفس الوقت كيف يضع الأسس القوية للمحافظة على كيان الإمبراطورية ، فكان يجمع أبناء الحكام ورؤساء العشائر من كل بلد ، ويرسل بهم إلى مدارس مصر لتنشئتهم تنشئة مصرية بحتة ، حتى إذا تشبعوا بالثقافة المصرية وسرى فى دمائهم حبهم وتقديرهم لعظمة مصر ، ارسلهم إلى مناطقهم ليحكموها وليكونوا فى نفس الوقت رسل الثقافة المصرية ، ودعاة المدنية الفرعونية . وليس من شك فى ان هذه السياسة قد فتحت آفاقا جديدة أمام المصرى ، فاختفت بالنسبة إليه الحدود السياسية التى كانت تمنع من اختلاط الشعوب الآسيوية بعضها ببعض من ناحية ، وبمصر من ناحية أخرى ، واصبحت البلاد الممتدة من أعالى الفرات شمالا إلى الشلال الرابع جنوبا متحدة على تباين عناصرها ، ومتصلة على اختلاف لغاتها

كما تركزت تجارة العالم القديم فى مصر ، وأصبح وادى النيل يفيض بخيرات العالم المتمدين . وكما انتشرت الحضارة المصرية فى ربوع كثيرة ، ولم تعد قاصرة على فلسطين والساحل الفينيقى فقط ، فإن المصريين فتحوا ابوابهم للأسيويين ، فدخلت البلاد عناصر جديدة من المظاهر الحضارية ، فظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ادوات موسيقية جديدة أتت من آسيا مع أنواع من الرقص الغريب ، بل انتشرت فى مصر بعض العادات الأسيوية ، وقبل المصريون عبادة آلهة أسيوية ، كما رضى ملوك مصر ان يستعملوا فى اتصالاتهم السياسية اللغة البابلية ، ودخلت اللغة المصرية كلمات اجنبية كثيرة ، كمدلولات للأشياء الجديدة الدخيلة على مصر . وهكذا تفتحت الآفاق أمام مصر للأخذ والعطاء ، ومع كل ذلك فلا نزاع فى أن مصر اعطت أكثر مما اخذت ، كما أن ما اخذته — على قلته — قد طبع بطابع مصرى بحت ، وتداوله الناس فيما بينهم كما لو كان من التراث المصرى القديم .

مات تحوتمس الثالث وخلفه ابنه امنحوتب الثانى الذى لم يتردد فى اتباع خطوات أبيه ونفذ سياسته الحربية ، وسار على نفس النمط خليفته ايضاً تحوتمس الرابع الذى نعتبره آخر ملوك الأسرة



(شكل ٢) الملكة « تى » . رأس لها مصنوع من خشب الأرز الصلب ، محفوظ بمتحف الآثار ببرلين . العينان مطعمتان والرأس مكسوة بقلنسوة . من الفضة ثبتت على الجبين بشريط من الذهب .

الثانية عشرة المحاربين الذين قامت الإمبراطورية على سواعدهم وهو أيضاً آخر من ذهب من ملوك هـذه الأسرة إلى ربوع آسيا متقدماً جيشه ليثبت من أقدام الإمبراطورية ، ويجعل هيبة مصر تحتل المـكان المرموق فى سوريا والعراق وآسيا الصغرى.

هـكذا توافرت لمصر أسباب التقـدم كلها ، وتجمعت لها عناصر الثروة والغنى العريض ، وكانت مركز العـالم المعروف ، وتدفق عليها ما تبعث به البلاد الأجنبية من خيراتها المـادية والروحية ، كان ملوك مصر هم حكام العالم وصار لهم من الثروة ما لا حصر له . حقا لقد بذل ملوك النصف الأول من هـذه الأسرة مجهودات جبارة ، وقد آن الأوان ان تستريح مصر ، وأن تجنى ثمار هذه المجهودات ، لقد تبلور هذا كله فى عصر خليفة « تحوتمس الرابع » اى فى عصر ابنه « امنحوتب الثالث » وأضحت طيبة عاصمة الإمبراطورية بل عاصمة العـالم تتمع بأزهى ما وصلت إليه البشرية إذ ذاك من مظاهر الرفاهية والرخاء .

مصر تجني ثمار حروبها

أنجب « امنحوتب الثالث » من اب متوج هو « تحوتمس الرابع » ومن أم غير مصرية » هى « موت – إم – أويا » بنت « أرتاتاما » الملك الميتانى . ولو ان هذه الزيجة حدثت قبل ذلك بنصف قرن لقامت الدنيا وقعدت ، ولما استطاع أمنحوتب الثالث أن يرتقى العرش بأى حال من الأحوال . لقد كانت القاعدة الثابتة هى أن يلى عرش مصر أحد الأمراء من اب وام تسرى فى عروقهما الدماء الملكية النقية ؛ اما إذا كان ابناً لزوجة مصرية ثانوية ، فكان من الواجب ان يلجأ إلى الزواج من اميرة من الفرع الملكى الخالص ليقوى بذلك شرعية مركزه، ويصبح اهلا لتولى عرش الفراعنة. ومن الطريف ان نعلم أن تحوتمس الثالث كان ابناً لزوجة ثانوية ، ومن أجل ذلك اضطر ليكسب نفسه شرعية الجلوس على العرش ، ان يتزوج من أميرة لها الحق الكامل فى الوراثة الشرعية ، وبذلك أصبح ابنه « امنحوتب الثانى » خالص الدم نقيه . اما تحوتمس الرابع فكان هو الآخر ابناً لزوجة ثانوية ، ولكن الأمور كانت قد تغيرت فى الفترة بين تحوتمس الثالث وحفيده تحوتمس الرابع،

فإن الاتصال بين المصريين والشعوب الأخرى جعل البلاط المصرى يعج بشخصيات مختلفة تنتمى إلى أجناس عديدة ، ولعل كثرة الأسرى الذين احضرهم « امنحوتب الثانى » كان السبب فى هذا الانحراف الذى مس المبادئ القديمة بشأن تولى العرش ، ولنضرب لذلك مثلا : احضر « امنحوتب الثانى » فى العام الرابع من حكمه « مائتان وسبعون امرأة من أميرات البلاد الأجنبية . . . مع حليهن التى يدخلن بها السرور على القلب من الفضة والذهب » وفى عامه التاسع أحضر من الأسرى ما لا يقل عن تسعين الفاً من المناطق التابعة لمصر . وليس من شك فى أن تجمع هذا العدد من السيدات والمحظيات الآسيويات فى الحريم المصرى امر له دلالته فى مدى تأثر البلاط بتقاليد غير مصرية .

كان « أمنحوتب الثالث » كما اسلفنا القول ، من ام ميتانية ، ولا بد أنه قد احيط بكل مظاهر الرعاية منذ طفولته ، كما تجمعت له كل الأسباب ليصبح ملكا تخضع لأمره كل ثروات العالم ، وتجبى موارده كلها تحت اقدامه ، فنشا مترفاً ، يعشق الحياة الرغدة ، ويقبل على ملذات الدنيا . ويعتبره التاريخ مثلا يضرب لأبهة الشرق ، فإن حبه للبذخ وإقباله على الانهماك فى ملذات

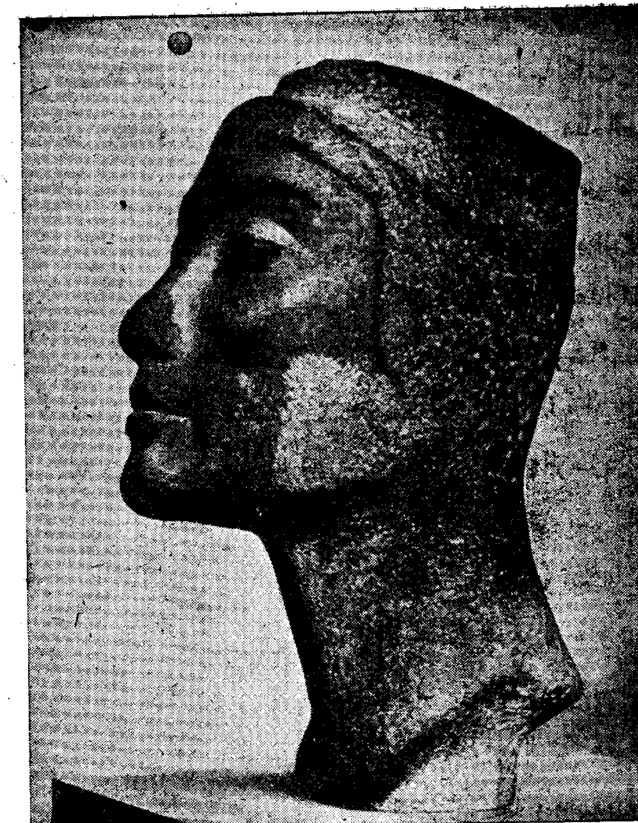
الدنيا يجعلنا نعدّه بحق « سلطان » مصر الفرعونية ، إذا صح لنا ان نتمثل بذخ الشرق وابهته فى كلمة سلطان .

لم يكد يكتمل العام الثانى لتربع « امنحوتب الثالث » على العرش ـ ولعله كان قد بلغ الربيع الثامن عشر من عمره ـ حتى اختار صبية لا تنحدر من اصل ملكى زوجةً له ، ابوها هو « يويا » كان الإله « مين » ، وأمها هى « تويا » إحدى سيدات القصر المشرفة على الملابس فى البلاط الفرعونى ، اى لم يحمل احد من أبويها أى لقب ذى اهمية ، هذه الصبية هى « تى » التى عرفت بقوة شخصيتها ان تجعل من نفسها إحدى سيدات التاريخ المصرى الشهيرات إذ كان لها اثر كبير فى توجيه سياسة الإمبراطورية المصرية فى عصر زوجها ، كما لعبت دوراً مهماً فى الأحداث التى جرت فى عهد ولدها « امنحوتب الرابع » (إخناتون) ، كما كان لتوجيهاتها أثر فعال فى سلامة القومية المصرية، والمحافظة عليها بعد موت ابنها .

وإذا كان « أمنحوتب الثالث » نصف « ميتانى » ولم يكترث أبداً لنقاء دمه الملكى ، فإنه كان اول ملك اختار « الزوجة الملكية العظيمة » من بين بنات الشعب المصرى . لقد كان ولا شك جريئاً فى تصرفه ، مجدداً فى التقاليد المصرية ، ولعله كان يرغب

بذلك ان يستزيد من تحرره من القيود القديمة ، والتى وإن هدفت إلى إحاطة الملك بهالة من القدسية الإلهية ، إلا أنها كانت تحدّ من حريته الشخصية دون شك . لقد اراد أن يتزوج هذه الصبية التي لا بد وأنه رآها تتردد على القصر تزور أمها فأحبها بل تدلّه فى حبها ، ففعل ضارباً بتلك التقاليد عرض الحائط . والوثائق التي وصلت إلينا من هذا العصر تشهد كلها بمدى تدلّه هذا الملك فى حب أثيرته ابنة الشعب « تى » ، وإمعانه فى إرضائها ، والتفنن فى تلبية رغباتها ، لقد وجد من حقها عليه ان يعلن زواجه منها على شعوب إمبراطوريته جميعاً . فحمل الرسل إليها بعدد من « الجعارين » الكبيرة نقش عليها نصاً يعتبر بمثابة إعلان ملكى لزواجه ، ولقد استنّ « أمنحوتب » عادة استعمال هذه الجعارين فى تسجيل الأحداث الكبرى ، وهى فى فكرتها تكاد تطابق عادة النقود التى تسكه وطوابع البريد التى تظهر فى مناسبات معينة،فى عصرنا الحالى .والنص هو :ـ

« حوريس ، الثور القوى ، المشرق حقاً ، المحبوب من الالهتين ، المشرّع للقوانين ، المهدئ للقطرين . حوريس قاهر نوب ، العظيم فى القوة ، قاهر الآسيويين ، الإله الطيب ، حاكم



(شكل ٣) « نفرتيتى » زوجة إخناتون . رأس من الحجر الرملى الصلب ، لم يتمه الفنان من صنعه ولكنه ولا شك أبدع فى إظهار حيوية ملامح الوجه (متحف القاهرة) .

طيبة ، صاحب القوة والشديد فى بطشه ، ملك الوجهين القبلى والبحرى ، « نب ماعت رع » ابن الشمس « امنحوتب » حاكم طيبة ، المحبوب من « آمون » سيد الآلهة ، والمحبوب من « خنوم » رب « الكبح » (الشلال) ، هو معطى الحياة ، والزوجة الملكية الكبرى « تى » لها الحياة ، اسم ابيها « يويا » واسم امها « تويا » ، إنها زوجة ملك قوى تمتد حدود مملكته الجنوبية إلى « كاروى » والشمالية إلى نهارين » .

ومامن شك فى ان مثل هذا الإعلان يحوى بين طياته اعترافاً قوياً بشعور الملك إنه اقدم على عمل : ما كان له أن يقدم عليه ، كما يحمل إصداره على ذكر اسم والد « تى » واسم أمها ، الدليل على انه أقدم على هذا الزواج وهو يعرف معناه ، ولكنه لا يأبه لنتائجه وظل بعد ذلك حريصاً على أن يقرن اسم زوجته الكبرى باسمه فى كل مناسبة دينية او سياسية ، وقد يشفع ذكرها بذكر ابويها أيضاً .

ولم يقف إكرام «امنحوتب» لزوجته عند هذا الحد ، بل ذهب إلى ابعد منه،فتراه خالف كل القواعد القديمة التى حرصت على عدم إظهار الزوجة الملكية بجانب زوجها فى التماثيل والرسوم إلا فى مناسبات معينة ، وعلى ان تحتضن الملكة — بتواضع —

ساق زوجها فتبدو صغيرة الحجم ؛ كأنما هى شخص لا اهمية له ، وإن حدث ان ظهرت بجانبه فيجب تمييز صورة أو تمثال الملك بحجم كبير بالنسبة إلى الملكة ؛ اما « تىّ » فأصبحت التماثيل والرسوم تصورها على قدم المساواة مع زوجها ؛ ولعل فى تمثالها الضخم المحفوظ بالمتحف المصرى والذى يمثلها جالسة بجانب زوجها دون ان يتميز عنها فى الحجم اصدق دليل على هذا .

* * *

كانت « تىّ » تتمتع بقسط وافر من الجمال . لا ينمّ عنه تدلّه « امنحوتب » فى حبها فحسب ؛ وإنما تشهد به كذلك تماثيلها الباقية التى تصورها فى تقاطيع مصرية ممتلئة جاذبية ؛ على انها كانت تجمع إلى ذلك الجمال ذكاء ودهاء استغلتهما فى دوام حظوتها لدى زوجها ؛ ودليل ذلك : الإعلان الملكى الذى اصدره « امنحوتب » بمناسبة زواجه الثانى من أميرة ميثانية تدعى « جيلوخيبا » ابنة الملك « شاثورنا » واعترف فيه لها بمركزها الأثير لديه . لقد صدر هذا الإعلان منقوشاً على جعران كبير وزعه الملك على اقطار الإمبراطورية . وهو يقول فيه :

« العام العاشر من حكم الملك حوريس (ويتبع ذلك القاب الملك) « أمنحوتب » ابن الإله رع ، حاكم طيبة ، له الحياة ،

وزوجته الكبرى « تىّ » ، اسم ابيها « يويا » واسم أمها « تويا » . لقد حدث ان وفدت إلى جلالته « جيلوخيبا » ابنة أمير الميثانى « شاتورنا » وفى صحبتها من سيدات بلاطها ٣١٧ سيدة » . وهكذا لم يفت الملك فى هذه المناسبة التى عقد فيها زواجه السياسى على اميرة اجنبية ، وبعد مضى ثمانى سنوات على زواجه من « تىّ » ان ينوه باسمها وباسم ابيها وأمها ايضاً ، مولياً إياها حقوقها الكاملة ، ومؤكداً مركزها المتفوق ، وهى كما اسلفنا القول ، سليلة اسرة لا تمت إلى الدم الملكى بصلة .

ولم تكد تمضى على هذا الزواج السياسى سنة كاملة ، حتى خرجت علينا « تىّ » بدليل آخر يشهد بمكانتها فى قلب زوجها ، إذ يأمر الملك المدله فى حبها بحفر بركة كبيرة بالقرب من قصرها على الشاطىء الغربى للنيل ، وذلك لتتنزه فى قاربها الذهبى على صفحتها ، وأصدر بهذه المناسبة ايضاً جعراناً كبيراً سجل عليه النص التالى :

« العام الحادى عشر ، الشهر الثالث من الفصل الأول ، اليوم الأول من حكم الملك « امنحوتب » له الحياة ، وزوجته الملكة الكبرى « تىّ »



(شكل ٤) « إخناتون » ، تمثال من مجموعة كبيرة عثر عليها فى الـكرنك ، وهى ولاشك كانت مقامة فى معبده الذى أقامه لأتون هناك .

لها الحياة . إن جلالة الملك أمر بحفر بركة لزوجته الملكة الكبرى « تى » فى مدينتها « زاروخع » على أن يكون طولها ٣٧٠٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع واحتفل الملك بافتتاح البركة فى الشهر الثالث من الفصل الأول ، وفى اليوم السادس عشر ، أبحر فوق سطحها على الزورق الملكى « بهاء أتون »

ولا ندرى تماما اين تقع المدينة « زاروخع » ، ولعلها جزء من مدينة (او حى من أحياء) مدينة تقع إلى أقصى الجنوب من البر الغربى لمدينة الأقصر ، ونكاد نجزم أن البركة السالفة الذكر هى البركة المسماة حالياً « بركة هابو » ، التى لازالت اطلال قصر امنحوتب الثالث قائمة على شاطئها .

وحسب النص السالف الذكر تكون البركة ايضاً قد بلغ اتساعها اكثر من ١٨٠٠ متر فى الطول وبلغ عرضها ٣٥٠ متراً ، وانها قد تمت فى فترة قصيرة جداً لا تزيد على الأسبوعين ، وحدث هذا كله لا لشىء سوى إعطاء فرصة لزوجته أن تتنزه على سطحها فى قاربها الذهبى « بهاء آتون » .



(شكل ٥)« إخناتون » رأس من مجموعة تماثيله التى عثر عليها فى الكرنك.

عاشت « تى » فى بلاط لم يضم الضرائر فحسب ، بل ملئ بالغوانى الحسان اللائى استحضرهن زوجها من البلاد التابعة له فى آسيا . لقد سبق أن قلنا إن البلاط الملكى كان يعج بالسيدات اللائى وفدن عليه فى عصر « امنحوتب الثانى » ، ولابد ان حضورهن من كل البلاد المجاورة لمصر استمر فى عصر «تحوتمس الرابع » الذى تزوج من ميثانيه ، ونسج أمنحوتب الثالث على نفس المنوال ، ولو أنه كان يتفنن فى انتقاء من يفدن إلى بلاطه من العذارى الأجنبيات ، ولكى نعطى صورة لهذه الظاهرة الغريبة أكتفى بسرد ما ورد فى بعض رسائل امنحوتب الثالث التى كان يبعث بها إلى ملوك وأمراء البلاد الآسيوية فى هذا الشان فهناك الخطاب الذى أرسله إلى أمير جازر واسمه « ميلكيلى » مع رسوله المدعو «خانيا» ويقول فيه : إنه فى حاجة إلى اربعين فتاة من اجمل فتيات المدينة يتميزن بوجوه جميلة وقوام ممشوق وليس فى إحداهن ما يعيب حسنها . ويستطرد الفرعون المصرى بعد ذلك قائلا : وسأتخذ من هذه الهدية مقياساً لحسن ذوقك وخبرتك !!

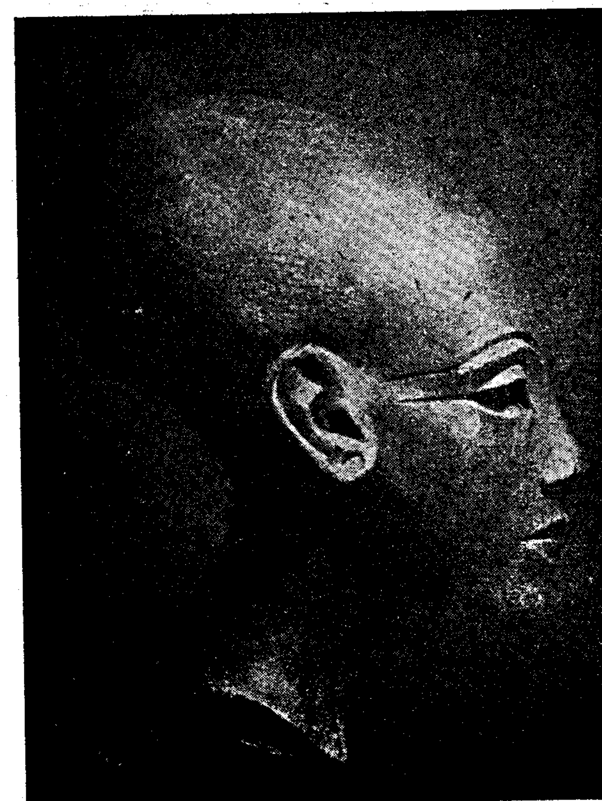
كما ان هناك خطاباً آخر ارسله إلى المدعو « شوباندو »

احـد امراء سورية يطلب فيـه ان يرسل عشرين عذراء واوفد كذلك رسولا إلى المدعو «عبدى خيبا» امير «اورشليم» طالباً إليه إرسال إحدى وعشرين فتاة من ابكار بلاده واخيراً يحدثنا التاريخ انه ارسل اكثر من اربع مرات يلح فى طلب ثلاثين عذراء من حليفه « دون شراتا » ملك الميتانى ، وفى المرة الخامسة اجيب إلى طلبه زد على ذلك ان الأميرة الميتانية « جيلوخينا » حضرت ومعها ٣١٧ غادة حسناء ، هـذا عدا زوجاته الشرعيات وهن كما اسلفنا الذكر « تى » المصرية و « جيلوخينا » الميتانية ثم اميرة بابلية نالت جانباً كبيراً من الحظوة لديه .

مما سبق لانكاد نشك فى ان البلاط المصرى كان يعج بالغوانى الأجنبيات وان صاحبه كان منغمساً حتى اذنيه فى اللهو والمجون، وكانت النتيجة الحتمية لازدحام البلاط الملكى بهذه الوفرة من السرايا (وقد حضرت منهن فى عصر أمنحوتب الثالث فقط ٤٢٨ غانية على اقل تقدير) ان اخـذ الدم الأجنبى يزداد امتزاجا فى عروق المصريين ، وبخاصة ان سراة القوم وكبار رجالات



(شكل ٦) تمثال صغير من الحجر الرملى الصلب ، لإحدى بنات إخناتون ولقد بقى سنين طوالا فى متحف الجامعة بلندن على أنه من روائع الفن اليونانى، ولقد استطاع فنان العمارنة أن يبدع فى إظهار ليونة الجسم وجعله ينبض بالحياة من تحت الرداء الذى لبسته الصبية .



(شكل ٧) رأس من الحجر الرملى الصلب ، لأحدى بنات « إخناتون » (متحف برلين) ويبدو واضحا أن العينين والحاجبين كانت من مادة أخرى تملأ التجويف . وواضح فى امتداد الجمجمة إلى الوراء تلك الطريقة التى اعتاد تمثيل رؤوس بنات إخناتون بها، وهى الطريقة التى قلنا بأنها كانت منتشرة فى قبرص.



(شكل ٨) لوحة من الحجر الجيرى الأبيض نقشت عليها صورة «لامنحوتب الثالث» يجلس على كرسيه بجوار زوجته « تى » (ولقد تهشمت صورتها ولم يبق منها سوى القدمان والجزء الأسفل من الرداء) ويبدو امنحوتب الثالث هنا فى أواخر حياته وقد سأم حياة البذخ والمجون التى عاشها ، وتكاثرت عليه الأمراض وتدلى وجهه نحو الأمام (المتحف البريطانى) .



(شكل ٩) لوحة من الحجر الجيرى الأبيض ، عليها نقش يمثل إخناتون وقد وقف أمام زوجته « نفرتيتى » متكئا على عصاة طويلة ، نبتها تحت إبطه ، فبدا فى موقف كله استرخاء وأنسجام يمثل ناحية شخصية من حياته اليومية التى تجرى وراء الجدران (متحف برلين) .

الدولة ، اخذوا هم ايضاً يجارون الملك ويعملون من جانبهم على استجلاب المحظيات من بلدان آسيا القريبة ، وكان لتجمع هؤلاء فى البيوتات المصرية أيما اثر فى انتشار كثير من العناصر الحضارية الأجنبية وتغلغلها فى الحضارة المصرية .

مولد إخناتون

رزقت « تى » من زوجها « أمنحوتب الثالث » ولدين ، احدهما وهو البكر اسمه « تحوتمس » وقد مات فى سن مبكرة وأبوه لا يزال على قيد الحياة متولياً العرش ، وثانيهما واسمه « أمنحوتب » ؛ وهو الرابع ممن تسموا بهذا الاسم فى عصر الأسرة الثانية عشرة وهو أيضاً الذى عرف فى التاريخ باسم « إخناتون » .

ولد « إخناتون » وكان قد مر على زواج « تى » من « امنحوتب الثالث » سنون طوالا وتربى وشب عن طوقه فى بلاط صاحب كله مجون وعبث ، وكان أبوه قد بدا كاهله ينوء تحت اعباء حياة الترف التى عاشها ، فلم يلبث ان انهكته الشهوات ودبت الكهولة فى أعضائه فى سن مبكرة ، ولم تسعفه الرقى والتمائم ، ولم يشفه الطب المصرى الذى ذاع صيته فى ارجاء العالم القديم ، بل ولم تستطع الإلهة « عشتارت » التى ارسلها إليه صهره « دوشراتا » الميثانى ان تصلح ما افسدته حياة

الخلاعة التى عاشها فى حريمه الصاخب ، ولعل اللوحة التى عثر عليها فى تل العمارنة والتى ظهر عليها « امنحوتب الثالث » جالساً بجوار زوجته « تى » وقد بدت عليه علامات الكهولة بشكل واضح فاتت جلسته متراخية ، وارتسمت على ملامحه علامات الرخاء المنهك المكدود . إنها ولاشك صورة لرجل قد أخذ المرض يفتك بجسمه بعد أن تجرع اللذة فى نهم وإسراف .

ولد إخناتون طفلا هزيلا ، ضعيفاً تراكمت عليه الأمراض ولازمته طوال حياته يدل على ذلك تركيب جسمه الغريب . فوجهه كان نحيفاً إلى درجة المزال ، طويلا برزت عظامه وتدلت ذقنه ، واتسعت مقلتا عينيه ، وارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة خفيفة إن دلت على شيء فهى تدل على طيبة قلب وحب للسلام ، وحمل راسه الكبير عنق طويل فوق كتفين ضيقين منحدرين ، وتميز جسمه يبطن كبيرة متهدلة لا تتناسب مطلقا معه كما كانت فخذاه عريضتين . اما الساقان فكانتا رفيعتين بشكل ملحوظ ، وإذا كانت هذه هى الصفات المادية لإخناتون ، فقد كان ولاشك ايضاً شديد الذكاء ، مرهف الحس ، فيلسوفا سديد الراى ، ذا عقل راجح ونفس صافية ، يمقت الكذب وينشد الصدق فى كل شيء ، فقد كان

يميل إلى معرفة الحقيقة فى ادق مظاهرها إلى درجة انه ابرز هذا المعنى الجليل فيما سماه المصريون « ماعت » وقصدوا بهذا التعبير « الحقيقة ، الصدق ،العدالة» ، وكان إخناتون يؤكد انه يعيش على « الماعث » كطعام له وان إلهه كان قانعا بتقديم « ماعث » كقربان له ، بل جعل اسمه « العائش على الماعث » وسمى عاصمته الجديدة« مقر الماعث » .

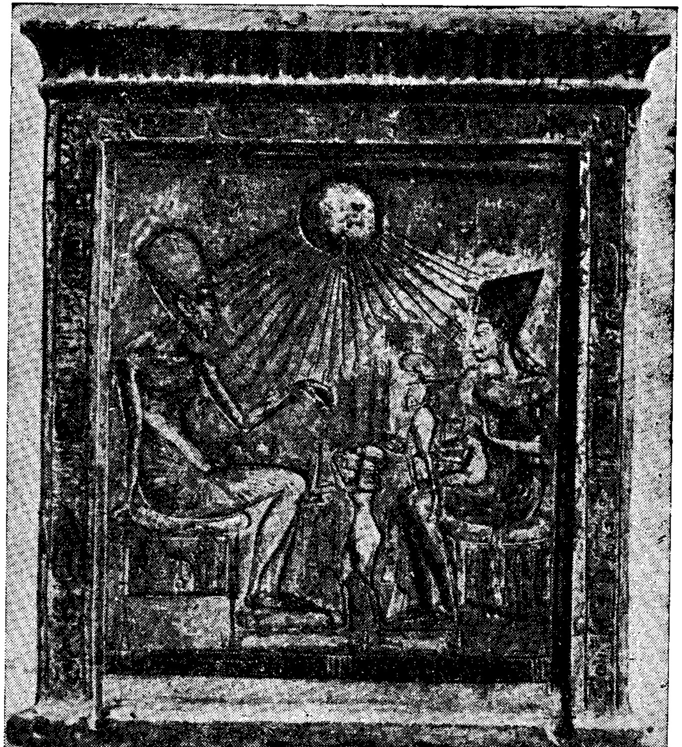
الوحدانية عند إخناتون

هذا هو « إخناتون » الذى دعى إلى عبادة « اتون » إلها واحدا ليس له مثيل ، وصوره بهيئة قرص الشمس يرسل أشعته على الكون ممتدة بأيد بشرية فتفيض على الخلق بالجود والعافية ، وهذا هو إخناتون الذى قل ان حظى ملك مصرى بمثل ما حظي به هذا الرجل من اهتمام الناس ، كما لم يحدث ان اختلفت الآراء بمثل ما اختلفت فى حكمها على هذا الرجل ، فمجده البعض إلى درجة ان رفعوه إلى مرتبة الأنبياء ، إذ اعتبروه أول من نادى بالتوحيد بين البشر ، نادى به بين المصريين الذين عرفوا بشدة تعلقهم بآلهتهم المتعددة ، كما حمل البعض الآخر على « إخناتون » حملات منكرة محاولا الحط من قيمته إلى درجة أنه قيل عنه : كان هذا الرجل شاذا فى خلقه ، شاذا فى عقله ، منحدرا إلى الحضيض فى بعض تصرفاته اما شذوذه الجسمى فلا دخل له فيه ، ولا ذنب له فى أنه خلق على تلك الهيئة التى لا تناسب بين أعضائها ولا انسجام ، وتماثيله تدل على تركيب غريب شاهد بقدرة الله ، أما شذوذه العقلي

فلمخالفته لأهل عصره فى عدم تشيعه لآلهة طيبة ، ومقته الشديد للإله أمون ، اما شذوذه الخلقى فهذا موضع الغرابة ، فإننا لفى شك مريب فى تلك العلاقة بينه وبين اخيه « سمتكارع » إذ كان حبه له وتعلقه به خارجاً عن نطاق العقل والمألوف .

هذا وأيم الحق كلام كله تحامل مذر على إخناتون ، إذ أنه ملىء بالطعن المرير الذى يقوم على اخطاء نسبها مؤلف ضد الرجل دون وجه حق ، بل نستطيع ان نؤكد أنه خلقها خلقاً ، وهو فى هذا يجارى بعض الكتاب الأجانب الذين درجوا على التقليل من اهمية التاريخ* المصرى والحط من كرامة البارزين فيه ،

لقد اختلفت الآراء فى ديانة إخناتون ، وهل كانت وليدة تنافس سياسى بين إخناتون كملك على العرش وبين سلطان كهنة آمون وثرائهم العجيب ، ام كانت فتنة حتمتها ظروف الإمبراطورية المصرية التى جعلت الثروة تنحصر فى فئة قليلة من الناس ، فقام النزاع المرير بين العمال وبين هؤلاء الأغنياء المتملكين لثروة البلاد ، أم أنها كانت ثورة قامت بين كبار الموظفين المدنيين وكبار رجال الجيش ، وفى آخر الأمر يأتى من يؤكد بأن ديانة « إخناتون » لم تكن وليدة تفكيره ووحى فلسفته بل هى مأخوذة من التوراة ، زعما منهم ببداية ظهورها قبيل



(شكل ١٠) لوحة تمثل « إخناتون » فى لحظة من لحظات حياته المنزلية يجلس على كرسيه متكئا بذراعه الايمن على حافة الكرسى وهو يلاعب إحدى بناته ممسكا بيده اليسرى عقدا صغيرا من الذهب ، وأمامه تجلس زوجته « نفرتيتى » وقد جلست فوق فخذها إحدى بناتها بينما وقفت أخرى تلفت نظرها ملحة فى ذلك بأن تلمس بأطراف أصابعها ذقن أمها (متحف القاهرة)

عصره ، واستنادا إلى التشابه بين بعض فقرات انشودة آتون وبين الفقرات من ٢٠ إلى ٣٠ من المزمور رقم ١٠٤ من العهد القديم : وقولهم هذا يفتقر إلى قوانين تاريخية ، فهناك راى سائد — وانا من مؤيدى هذا الراى بان إخناتون عاش فى عصر سابق لعصر ظهور المزامير ، وإن مقارنة بسيطة بين نشيد إخناتون والمزمور رقم ١٠٤ لتدل على أن النشيد هو اصل المزمور :—

(الفقرتان ٢٠ ، ٢١) « تجعله ظلمة فيصير ليلا ، فيه يدب كل حيوان . . الأشبال تزمجر لتخطف ، ولتلتمس من الله طعامها » .

(الفقرتان ٢٢ ، ٢٣) « تشرق الشمس فتجتمع ، وفى مآويها تربض ، الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله فى المساء » .

(الفقرة ٢٤) « ما اعظم اعمالك يارب كلها بحكمة صنعت ، ملأت الأرض بغناك » .

(الفقرتان ٢٥ ، ٢٦) « هذا البحر الكبير الواسع الأطراف ، هناك دبية بلا عدد ، صغار حيوان مع كبار ، هناك تجرى السفن ... »

(الفقرة ٢٧) « كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه ».

(الفقرة ٢٨) « تعطيها فتلتقط ، تفتح يدك ، فتشبع خيرا»

(« ٢٩) « تحجب وجهك فترتاع ، تنزع أرواحها فتموت » .

(الفقرة ٣٠) » ترسل روحك فتخلق ، وتجدد وجه الأرض » .

هذه الآيات من العهد القديم التى تقابل الفقرات الآتية من انشودة « إخناتون » فى تمجيد إلهه « اتون » وسنضع رقم الفقرة امام النص المقابل له فى الأنشودة .

(٢٠ ، ٢١) « إذا غربت فى افق المساء الغربى ، اظلمت الأرض ، واصبحت كالجثة الهامدة ، وهرع الناس إلى منازلهم ليناموا وتهدا حركتهم ، ولا ترى عين عينا اخرى (ولا يرى احدهم الآخر) حتى ان امتعتهم تسرق من تحت رؤوسهم دون ان يشعروا ، اما الأسود فتخرج من ادغالها ، وتبدا الثعابين اللداغة تسعى على الأرض . هذه هى مملكة الظلام إذ يخيم السكون على العالم ، لأن خالق الأرض قد ذهب ليستريح فى أفقه . . . »

(٢٢ — ٢٣) « إذا ما اشرقت فى أفقك كآتون يبدأ النهار ويعم النور الأرض ، وإذا ما بزغت أشعتك اختفى

الظلام ، وعم الفرح أرض مصر ، ويبدا الناس بالوقوف على أقدامهم ثم يغتسلون ويبتهلون بأذرعتهم إليك وقت شروقك ، ثم يخرجون سعياً وراء أرزاقهم .

(٢٤) « ما اكثر مخلوقاتك التى نجهلها ، انت الإله الواحد الذى ليس له مثيل خلقت الأرض طبقاً لما تريد ، ولما كنت وحيداً فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان ، الكبير منه والصغير ، وكل ما يسعى على قدميه فوق الأرض ، وكل ما يحلق بجناحيه فى السماء . أنت الذى أحللت كل إنسان فى سورية والنوبة ومصر فى محله ، وانعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش ايامه المعدودات ، وقد تفرقت السنتهم باختلاف لغاتهم ، وكذلك أشكالهم وألوان اجسادهم ، اجل لقد ميزت الشعوب » .

(٢٥ — ٢٦) « تبحر السفن مع التيار وعلى عكسه ، وكل طريق عام يصبح مطروقا ، لأنك ظهرت فى الأفق ، اما السمك فيقفز فى النهر امامك لأن أشعتك تنفذ إلى اعماق البحار » .

(٢٧ — ٢٨ — ٢٩ – ٣٠) « أنت خالق النيل فى السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر ، ويسقى حقولهم

بما تحتاج إليه ، ما اعظم تدبيراتك يا سيد الأبدية فقد وهبت شعوب الجبال نيل السماء (المطر) اما النيل الذى يخرج من العالم السفلى فقد وهبت مصر إياه ، إن أشعتك تغذى الأرض وعندما تشرق ، تحيا وتنمو لأجلك وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت » .

هذه هى المعانى التى وردت فى كل من انشودة إخناتون وفى الآيات السالفة الذكر من المزمور رقم ١٠٤ ، وهى تدل فى إسهابها ولغتها البدائية ومعانيها التى اخذت تظهر فى اللاهوت المصرى منذ أقدم العصور على أنها أصيلة فى مصريتها وأنها كانت الأصل الذى نُقلت منه إلى كتاب العهد القديم . اقول إنها اصيلة فى مصريتها، بل إن هناك أكثر من معنى من معانيها ردده المصرى منذ اول عصوره و«إخناتون» لم يخترع قرص الشمس الذى يمد الناس بالحياة ، بل إنه وجد هذا الراى جاهزاً بين يديه ، وإننا لنعلم ان عقيدة الشمس عرفت فى مصر منذ فجر تاريخها وصورها المصريون على هيئة إنسان يحمل فوق راسه تاج الملك ويتربع على عرش الدنيا ويطلقون عليه اسم « اتوم » ويعتبرونه اول الخليقة واصل البشر جميعاً ، ولقد وردت فى ستوت

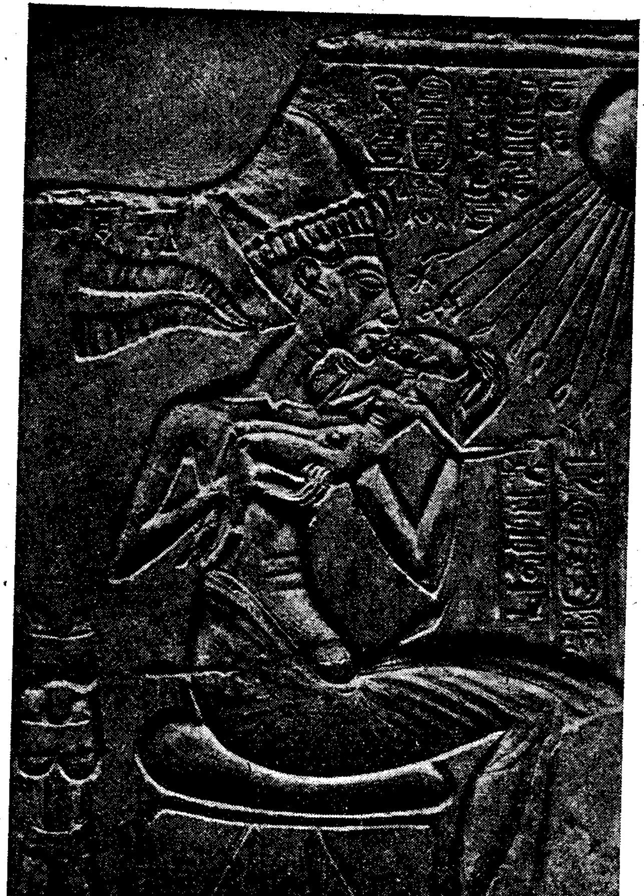
الأهرام (الفقرات رقم ٨٥٢ إلى ٨٥٤) انشودة تجرى كلماتها على الوجه الآتى :

« سلام لك ايها العظيم ، يا ابن العظيم ، إن الجنوب يسعى لإرضائك ، والشمال يعمل من اجلك ، إن فتحات النوافذ السماوية تتفتح لك . . . . .

سلام لك ايها الواحد الذى قيل عنه : إنه سيعيش ابداً . لقد ظهر « حوريس » .

« لقد ظهر « حوريس » ذو الخطوات الواسعة ، لقد ظهر ذلك الذى يسيطر على الشرق ويسود الآلهة ، سلام لك ايها الروح فى إشراقك ، أنت « الواحد » كما سماه ابوه ، وانت العاقل كما نعتته الآلهة ... »

وإذا كانت الأنشودة السالفة الذكر ترجع إلى الأسرة الخامسة من الدولة القديمة (حوالى ٢٧٠٠ ق.م) فهناك أنشودة اخرى ترجع إلى مطلع الدولة الحديثة (حوالى ١٤٥٠ ق . م) هذا نصها : « الصلاة لك يا « رع » عند الشروق ويا « اتوم » عند الغروب ، إنك تشرق وتشرق ، وتسطع وتسطع ، متوجا كملك الآلهة . أنت يارب السماء والأرض الذى خلق الكائنات العليا والسفلى ، ايها الإله « الأحد » الذى كان منذ البدء ، الذى



(شكل ١١) « إخناتون » يحمل بين يديه طفلته الصغيرة مقبلا إياها ، فى حين تشير الطفلة بصابعها نحو أمها الجالسة على الجانب الآخر من اللوحة (متحف برلين) .

أنشا العالم ، وخلق البشر ، والذى انشا ماء السماء ، وخلق النيل والذى انشا الماء واحيا ما فيه ، والذى اقام الجبال ، وخلق الإنسان والماشية » .

واكثر من هذا فإن اناشيد الإله « امون » نفسه وهو الذى حلّ « اتون » محله فى عهد « اخناتون » تجرى على النحو الآتى : « امون الذى خلق كل ما هو موجود ، من عينيه نشا



(شكل ١٢) منظر جميل من بين المناظر التى كانت تزين جدران منازل العمارنه وهو يمثل خميلة من البردى واللوتس وقد نفرت طيور فقردت أجنحتها لتطير عنها بعد أن كانت تقف على قممها (متحف برلين) .

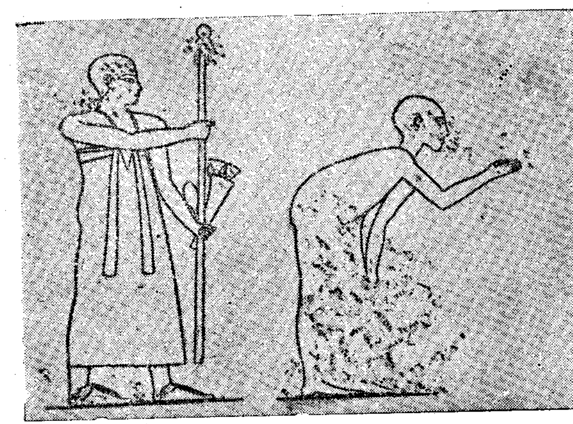
الإنسان ، ومن فمه الآلهة ، الذى انبت الأعشاب للماشية ، وأشجار الفاكهة للإنسان ، الذى يمنح الحياة للأسماك فى الماء ، وللطيور تحت السماء ، الذى يمنح الهواء للفرخ فى البيضة ، ويحفظ نسل الدودة حيا ، الذى خلق ما يعيش عليه البعوض ، والديدان وكذلك البراغيث ، الذى خلق



(شكل ١٣) منظر جميل يمثل عجلا صغيرا يلهو وسط الخمائل فأزعج بحركته طائرين ففردا أجنحتهما لتطير . يلاحظ هنا طريقة تمثيل الحركة فى جسم العجل ، فالأقدام الامامية منها والخليفة لا تلامس الأرض كما أن ظهر الحيوان تقوس إلى أسفل بما يتفق وحركة الوثب . (متحف برلين) .

ما تحتاج إليه الفيران فى جحورها ، والذى تحفظ الطيور على سائر الأشجار » .

ولعل من أهم الأمثلة التى تضرب لتوضيح الرأى الذى يقول بأن معظم الصفات التى أوردها إخناتون لإلهه الجديد كانت أصيلة



(شكل ١٤) الوزير « رعموزه » الذى عاصر كل من أمنحوتب الثالث « واخناتون » ونرى إلى اليسار الطريقة التقليديه فى الفن المصرى لتصوير الوزير فنراه واقفا مرتديا زى الوزير وكله وقار وشباب واستقامة فى الخطوط والمظهر ، فى حين نراه نفسه إلى اليمين وقد إنحنى أمام الملك إنحناءة كلها واقعية واحترام (مقبرة الوزير رعموزه رقم ٥٥) .

فى اللاهوت المصرى ، هو ما كتبه كل من الأخوين « سوتى » و « حور » على لوحتيهما . وكانا من المهندسين المعماريين الذين سكنا طيبة فى عصر الملك « امنحوتب الثالث » والنص عبارة عن نشيد يعدد صفات الإله « آمون رع » .

« إنك صانع تولى تشكيل أعضائه — إنك خالق ولم يخلقك أحد ، إنك وحيد فى صفاتك ، تتحرك أبديا وتخترق طرقا يتبعك فيها الملايين عندما تعبر السماء ، تتطلع إليك كل الوجوه ، وإذا ما غربت اختفيت عن أنظارهم عندما تغرب فى الجبل الغربى ينامون كما لو كانوا موتى . . .

خالق كل شىء وهو الذى يضمن لها الحياة .

إنك خالق له حنكفه ، وراع شجاع يعرف كيف يقود ماشيته وهو ملاذها ، ومدير حياتها ، إنه يشرف على ما خلقته يداه .

إنه السيد الأوحد الذى تدين له البلاد كل يوم، ويراهم وهم يسيرون إليه . يشرق فى السماء مثله مثل الشمس ، وقسم الفصــول إلى شهور ، وهو يخلق

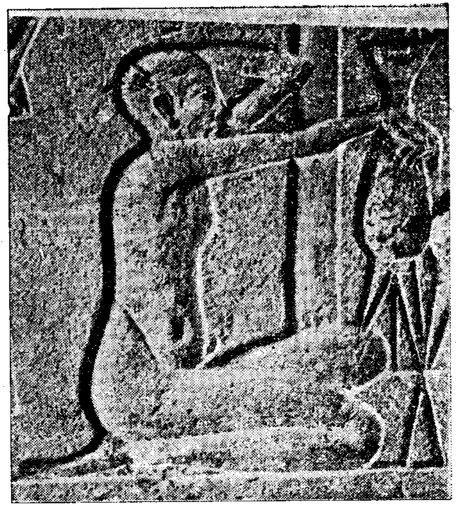
الحر والبرد بإذن منه ، إن البلاد تهلل كل يوم عند شروقه وما ذلك إلا تسبيحاً بحمده » .

إن القارئ إذا حاول المقارنة فسوف يجد أن العناصر الأساسية الخاصة بالتوحيد وخلق الخليقة ، والهيمنة على ما هو فوق الأرض ، ماثلة كلها فى هذه النماذج الأربعة التى ذكرتها مثلا لما كان يردده المصرى من أناشيد للآلهة فى معابدها ، وإننا لنعتقد اكثر من ذلك أن ديانة المصريين القدماء بما فيها من تعقيد وما تحويه من كثرة للآلهة ، قد نوهت منذ أقدم العصور بإله واحد ، يتجلى ذلك فى كثير من أقوالهم ، ومنها الحكم والأمثال والتحذيرات التى يلقنها المعلم لتلاميذه فى المدارس ومن أمثلة ذلك أنهم يقولون :

« إن الإنسان قد خلق من طين وتبن ، والإله هو بانيه »

أو « وأيم الحق إنك لا تعرف ما يجول بخاطر الإله ، ولذلك فأنت تجهل ما يأتى به الغد ، فألق بنفسك بين يدى الإله » .

ونحن حين نجد المصرى يعرّف الإله دائماً باسمه ، فيقول « آتوم » أو « حوريس » او « رع » أو « آمون » نراه هنا



(شكل ١٥) منظر يمثل سيدة تندب عزيزا لديها ، وقد استطاع فنان العمارنة أن يكسب حركات الذراع الأيمن والكف والأصابع ما يدل على مدى حزن السيده (متحف برلين) .

يذكر كلمة « الإله » دون تمييز له ، أو إفصاح عن اسمه ، ولذلك نود أن نعتقد بأن المصريين القدماء ، وفى الأقل اولئك الذين تفقهوا فى الدين ، وعرفوا اسراره ، قد اعتنقوا منذ عصور مبكرة ديانة « الإله الواحد » وإن كانوا لم يجهروا بها .

وإذا كان الأمر كذلك فإن انشودة آتون التى دبجها يراع « إخناتون » حوت عناصر مصرية قديمة ، أصيلة فى الفكر والعقيدة المصرية ، ولا يمكن أن تكون قد أخذت عن عقائد أخرى أجنبية كما يود البعض أن يؤكد كما أسلفنا الذكر .

آمون سيد الآلهة

لقد قلنا على الصفحات السالفة إن إخناتون كان رجلا مريضا منذ الصغر وقد كان ميالا إلى السلم ذكيا ، فيلسوفا ، ومفكرا ، فإذا كان الأمر كذلك فما هى الأسباب التى دفعته إلى ان يركن إلى القسوة والشدة فى دعوة الناس إلى دينه الجديد ؟ ولماذا جرد حملة عنيفة ضد آمون وكهانه ؟ ، سنحاول على الصفحات التالية شرح هذه النقطة شرحا وافيا ، إلا أن من الواجب علينا أن نقدم لذلك بكلمة موجزة عن العوامل الدينية التى لعبت دورها الرئيسى فى هذا الشأن .

عرف المصرى القديم بكثرة آلهته وتعدد أشكالها وانواعها ، ولعل مرجع ذلك أن الدوافع التى ألجأته إلى التعبد لهذه الآلهة كانت بدورها متعددة ، فهناك قوى الطبيعة الكبرى مثل الشمس والقمر والسماء والأرض ، وهى مظاهر عظيمة بهرته ، وتعجب المصرى الأول من امرها ولم تساعده بدائيته أن يتفهم كنهها ، ولم يستطع إلا أن يجعل منها آلهة مختلفة ، بل كانت لديه هى الآلهة الكبرى . ولكن المصرى فى عصوره البدائية ايضا لم يستطع إلا أن يتساءل فى حيرة عن علاقته بهذه الآلهة : هل كانت تهتم

بامره وتسعى إلى معونته إذا ما حلت به الأزمات ؟ هل كانت هذه الآلهة تسرع إلى إغاثته إذا هاجمه عدو أو مرضت ماشيته ؟ لقد عرف بغريزته أن هذا بعيد التحقيق ، فحاول أن يجد آلهة اخرى قريبة منه تساعده وتكون سنده فتشدّ من أزره وتخفف من ويلاته ... ! ووجد فى بيئته الكثير من المخلوقات التى كانت تثير دهشته وتملأه إعجابا ، كما وجد منها ما كان يرعبه ويقض مضجعه . فعبد إحدى مظاهر الطبيعة التى انتشرت فى بيئته المحلية . وهكذا تكونت بجانب الآلهة الكبرى أعداد لا حصر لها من آلهة محلية ، تعددت بتعدد أسباب وجودها ، والمناطق التى عبدت فيها . وتعلق المصرى الأول بهذه الآلهة الصغرى . وتأثرت بها حياة الأسرة سواء فى القرية أو فى الإقليم حتى أصبح لكل أسرة ولكل قبيلة ، ولكل إقليم آلهته المتعددة .

ثم حان العصر الذى تكونت مصر فيه سياسيا فاندمجت الأسرة فى الجماعة وتكونت المقاطعات ، ثم اندمجت هذه المقاطعات وتكونت مصر من قسمين شاملين : هما الوجه القبلى والوجه البحرى ، ثم اتحد الوجهان واصبحت مصر دولة متحدة على راسها ملك واحد . ولقد ظهر نوع ثالث من الآلهة اسموه آلهة الدولة وهى آلهة كانت فى الأصل محلية ثم تمكن حاكم إقليمها

من ان يبسط سلطانه على الأقاليم المجاورة ، ويفرض فى نفس الوقت إلهه على الناس ليعبدوه ، وإذا قدر له أن يحكم مصر كلها فإن إلهه هذا يصبح إلها لكل المصريين ، ومن أهم الآلهة التى كانت لها الصدارة فى العبادة : « حوريس » و « رع » و « آمون » .

وإذا كان « حوريس » قد كانت له الصدارة فى الأسرات الأولى من التاريخ المصرى فقد ظهر « رع » وهيمن على اللاهوت المصرى فى عصر الأسرة الخامسة من الدولة القديمة واستمر متمتعا بأهميته وصدارته فترة طويلة من الزمن ، ولم يستطع « آمون » الذى ظهر على المسرح الدينى ابتداء من الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى (٢٠٠٠ ق . م) أن يتصدر الآلهة ويصبح إلها للدولة إلا بعد أن ضموا إليه صفات رع وأصبح « آمون رع » ، ثم ساعدته الظروف السياسية منذ عصر الأسرة الثانية عشرة ليصبح إلها للإمبراطورية وملكا للآلهة ، بل وأصبح ينسب إليه أنه كان يوحى إلى أبطال الإمبراطورية بالفتوحات ، ويكتب للجيوش المصرية النصر ، وبعونه فحسب يستطيع الملوك أن يدمروا المدن ويفتكوا بالأعداء . ولعل هذا المعنى يبدو واضحا فى الكلمات التى سجلها « تحوتمس الثالث » ،

القائد العسكرى المغوار الذى سجل أهم انتصارات فاز بها ملك من ملوك الفراعنة ، سجلها على جدران معبد الكرنك على أنه تلقاها من « آمون رع » العظيم :

« إن قلبي ينشرح بمجيئك إلى معبدى . وتمنح
يداى اعضاءك الحماية والحياة »

« ما أرق الشفقة التى تظهرها نحوى ! ولهذا
سأثبتك فى مأواى وأهبك معجزة »

« إنى أمنحك القوة والنصر على كل البلاد ،
وإنى أمهد لك المجد »

« وأبث الخوف منك فى كل البلاد المنبسطة ،
ساجعل الرعب منك يمتد إلى عمد السماء الأربعة »

إنى أجعل احترامك عظيما فى كل الأجسام ،
وأجعل نداءك الحربى يتردد بين جميع الشعوب »

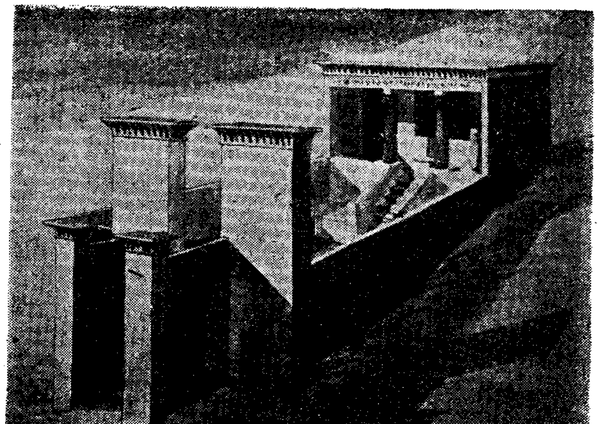
« إن عظماء البلاد الأجنبية فى قبضتك ، وإنى
أمد يدى بنفسى »

« وأصيدهم لك . واربط الأسرى من البدو
بعشرات الألوف »

« ومن أهل الشمال بمئات الألوف ، وإنى أجعل

أعداءك يسقطون تحت نعليك »

« إنى امنحك الأرض طولا وعرضا ، فأهالى
المغرب وأهالى المشرق تحت سلطتك » .



(شكل ١٦) منظر يمثل مقبرة أحد أشراف تل العمارنة ، وكانت تبدأ بالمدخل الذى يؤدى إلى فناء مفتوح فى أقصى الغرب منه درج يصعد إلى حجرة القرابين التى تتقدمها شرفة مقام سقفها على عمودين مأخوذ من كتاب
Pect and Woallcy - City of Akhenaton - Pl. 26.

ذلك هو حديث « آمون » إلى ابنه فرعون مصر ، ومنه نستشف مدى قوة هذا الإله وعظم الفضل الذى دان به الملوك ،

فما كان لهم حياله إلا الوفاء له ، فشيدوا لإلههم الأكبر المعابد الضخمة فى كل مكان ، سواء فى داخل القطر أو فى أرجاء الإمبراطورية الواسعة ، وسواء فى آسيا الغربية أو فى مناطق السودان ، ومنحوا هذه المعابد النصيب الأوفى من الأسرى والمغانم التى كانوا يعودون بها من فتوحاتهم المتعددة بآسيا ، كما وقفوا عليها الضياع الممتدة . وقصارى القول إن ملوك هذه الأسرة تفننوا فى إظهار ولائهم وخضوعهم لهذا الإله العظيم الذى كانت مصر فى زعمهم تدين له بوجودها وخصبها وغناها وحضارتها . ولم يكن هناك من نتيجة لذلك إلا أن يصبح كهنة هذا الإله هم المسيطرون المتحكمون فى البلاد ، فهم سدنته العارفون بعظمته ، المقربون منه ، وهم أيضا من يتوجهون إليه بالدعاء فيمنح الملك النصر فيستجيب لدعائهم أو لا يستجيب .

آمون أثار حسد الآلهة الأخرى

هكذا أخذ كهان آمون يسيطرون على كل شىء فى مصر ، وانصرف همهم إلى توطيد سلطانهم ومضاعفة ثرواتهم ، وما كان يتفق مع أطماعهم أن يوجد فى مصر إله آخر ينافسه ، أو بالأحرى ينافسهم فى قوتهم وجبروتهم . وقد استطاعوا ان يحققوا بغيتهم بأن أدمجوا جميع الآلهة فى إلههم فأصبح « أمون » هو : « أمون — رع » و « أمون — ختوم » و « أمون — مين » وهلم جرا . وهنا أخذ الحسد يدب فى نفوس كهنة هذه الآلهة ذات الصيت القديم والمجد التليد ، ولم يكن من صالح هؤلاء الكهان مطلقا أن يتناسى الناس ، وعلى راسهم الملوك ، وآلهتهم ويولوا وجوههم شطر أمون وكهانه ، ولا ينالهم بعد ذلك إلا الفتات . وكان على راس أولئك المتذمرين كهنة « رع » العظيم الذى ساد البلاد من قبل وهيمنت تعاليمه على التفكير المصرى القديم ، وقد تنادوا بأن ديانة أمون أو قل مدرسته اللاهوتية لم تؤثر تأثيراً يذكر على الحياة المصرية

العامة(١) ولم يتهيأ لها أن تدفع حضارة البلاد نحو التقدم بمثل

(١) مدينة طيبة عاصمة الإقليم الرابع من مصر العليا ، لم تظهر إلا فى عصر الأسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ ق . م) وبالتالى لم يظهر إلهها « أمون » إلا معها ، وكلاهما ظهر عندما رجعت كفة حكام إقليم طيبة فى الكفاح الذى شنوه ضد ملوك إهناسيا الذين هيمنوا على الدلتا ومصر الوسطى فى عصر الأسرتين التاسعة والعاشرة. وعندما انتصر الطيبيون لم يكن من السهل عليهم تثبيت أقدامهم فى الحكم دون الاعتماد على عقيدة جديدة وإله جديد يدين الجميع بالعبادة والطاعة له ، ولم يكن من السهل على أصحاب الوحدة الجديدة أن يجعلوا من إلههم المحلى « منتو » إلها للدولة ، إذ كان من الآلهة الصغرى المحلية وكان إلها للحرب ، ودفعتهم التقاليد المصرية أن يتمثلوا بما كان يجرى فى منف العاصمة القديمة ، وفى هيليوبوليس أهم مدن الشمال طرا وصاحبه لاهوت رع ، وهكذا اضطر أهل طيبة أن يستعيروا واحدا من آلهة مدينة الأشمونين ، وهى أهم مدن مصر الوسطى وصاحبة مدرسة دينية قديمة وقفت على قدم المساواة مع مدرستى كل من منف وهليوبوليس. والأشمونين كلمة مصرية قديمة تعنى « الثمانية » نسبة إلى الآلهة الثمانية التى تعتبر أصل الخليقة والتى ظهرت أول ما ظهرت فوق تل هذه المنطقة . وعندما انتقل « امون » إلى طيبة ، أعلن أصحاب الدين الجديد : « هو أمون » وهو أيضا « تاتنن » (الأرض البارزة) ، أى « أمون » الذى برز من « تون » (الماء الأزلى) حتى يرشد الناس إلى الصواب ، والثمانية ليسوا إلا صورة أخرى له ، هو خالق الأبديين الذين ولدوا « رع » حتى يكتمل « كأتوم » . ولم يكتف أهل طيبة بهذا ، بل أرادوا أن يقيموا الصلة بين إلههم وبين إله هيليوبوليس « رع ـ أتوم » وهو سيد الهة هذه المدينة =

ما قامت به مدرستهم فى هيليوبوليس ، وأخذت عوامل الثورة تتأجج فى صدور الكهان من سدنة آلهة مصر الكبرى التى اضطرت إلى الانزواء فى الظلام بينما سيطر أمون على كل شىء .

واستمر الحال هكذا يزداد امون شهرة وثراء يوما بعد يوم ، بينما « رع » والآلهة الآخرون ينزوون فى ظلمات الماضى ، فتقل موارد معابدهم ، وتزداد اسباب الفاقة والعوز بين كهانهم ، ودارت الأيام دورتها ومرت السنون تباعا حتى تولى عرش مصر « أمنحوتب الثانى » (السابع من ملوك الأسرة الثامنة عشرة) وكان قد انجب خمسة ابناء بعث بهم إلى « منف » العاصمة القديمة والتى أصبحت فى عصر هذه الأسرة ، مقر قيادة الجيش ، وكان العرف قد جرى إبان هذه الفترة على إيفاد أمراء البيت المالك إلى هذه المدينة ليتلقوا ثقافتهم العسكرية فيها ، ويأخذوا بأسباب العلم والمعرفة ويتعمقوا فى شئون اللاهوت المصرى فى جامعة هيليوبوليس القريبة منها . ويبدو ان علماء هذه الجامعة وهم

= وسيد السماء ، قالوا فيه : « يارع » الذى يعبد فى الكرنك ، ياعظيم فى إشراقه فى منزل المسلتين ، ياهيليوبوليتانى ، سيد الأيام التى يشرق فيها الهلال ، ملك وسيد جميع الآلهة ، أيها الصقر الذى يسكن أرض النور ، ياسيد البشر الذين يحرصون على إخفاء إسمك قبل أولادهم وأحفادهم ، « ياأمون الخفى » .

فى نفس الوقت كهان « رع » صاحب الدين القديم ، كانوا قد حاولوا منذ أن تداعى سلطانهم التأثير على قلوب من وفد إليهم من الأمراء ، وإغراءهم بالالتفاف حول راية إلههم ، والدعوة له دون « أمون » ، عساهم أن يسترجعوا من وراء ذلك بعضاً من سلطتهم السياسية القديمة ، ويعيدوا إلى معابدهم مجدها القديم .

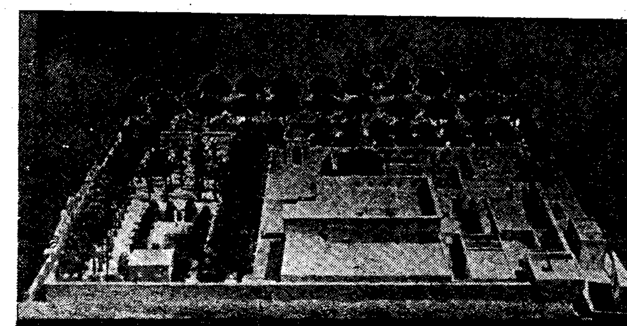
واكبر الظن ان كهان « رع » لم يأنسوا فى اولئك الفتية (أولاد أمنحوتب الثانى) ما كانوا يبتغون من إقبال على ترويج دعوتهم ، ولعل الحقيقة أنهم كانوا اضعف من ان يحققوا بغيتهم أمام تلك القوة الطاغية التى استأثر بها رجال « امون » فى طيبة لولا أن أحد أولئك الأمراء الخمسة ، ولم يكن أكبرهم سناً ، بمعنى انه لم يكن صاحب الحق الأول فى تولى العرش بعد ابيه ، مال إلى الاستجابة لدعوتهم ، ليس اقتناعاً بها ، بل على شريطة ان يؤيدوه فى إرتقاء العرش دون إخوته وبعد موت أبيه . ذلك هو « تحوتمس الرابع » ، الذى تلاقت مصالحه مع أهداف كهنة هيليوبوليس ، وارتقى العرش مسجلا قصة « الرؤيا » على لوحة كبيرة من الجرانيت ، لا تزال قائمة فى مكانها الأصلى بين ذراعى « أبى الهول » بمنطقة أهرام الجيزة ، وهى إحدى القصص التى يحاول فيها الكهان تأكيد رضاء أحد الآلهة عن

شخص معين واختياره إياه ليكون ملكا على مصر . وتقص هذه اللوحة بالذات أن الأمير « تحوتمس » بن الملك « أمنحوتب الثانى » كان قد استقل عربته حين الظهيرة ، وأخذ يطارد حيوان الصحراء مع اثنين من أتباعه ، ولا بد أن المطاردة بدات من ضواحى « منف » (على بعد ٢٢ كيلو مترا إلى الجنوب من اهرامات الجيزة) واتجهت نحو الشمال ، فما كاد يصل إلى الجيزة حتى كان التعب قد أنهك قواه فأوى إلى الظل بجوار تمثال الإله « ابى الهول » فأخذته سنة من النوم تبدى له فيها الإله يتكلم بفمه ، كما يتكلم والد مع ولده قائلا :

« ولدى تحوتمس ! تاملنى فأنا أبوك « حور . إم . اخت . خبرى رع . اتوم » [هذا هو اسم الإله الذى يمثله تمثال « أبى الهول » ويعنى « حوريس فى الأفق ، الذى خلق من نفسه ، هو رع أتوم »] إنى واهبك ملكى على الأرض لتكون سيداً على الأحياء ، ولسوف تتوج بالتاجين الأبيض والأحمر على عرش « جب » ، وستكون لك الأرض بطولها وعرضها ، وكل ماتضيئه عين رب الجميع ... وستكون لك خيرات القطرين وجزى البلاد جميعاً . . . إنى موليك وجهى فكن حفيظاً على شئونى ، ولقد دب الإعياء فى أعضائى جميعاً ، إن رمال الأرض

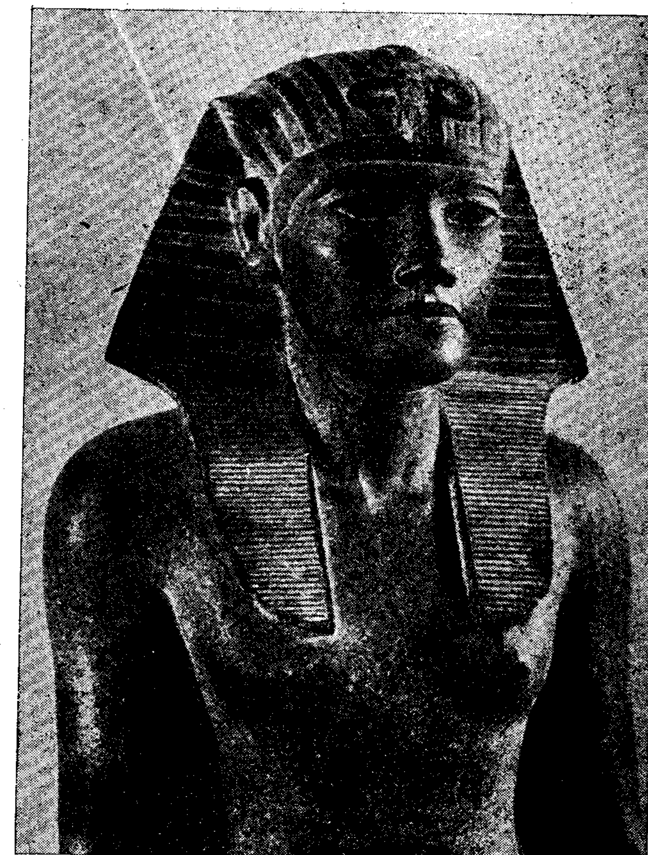
التى اعتليها قد غمرتنى ، فاتجه إلى لتنفذ رغبتى ، إنى لأعلم أنك ولدى والمدافع عنى فتقدم ، وإنى معك ومرشدك »

كان معنى هذا الحديث الذى كتب على لسان الإله أنه قد اصطفى « تحوتمس » ليتولى عرش مصر من دون إخوته الخمسة ، على الرغم من انه لم يكن احقهم به ،والواضح ان كهنة « رع » كانوا من وراء قصة الرؤيا ، وأنهم قد نجحوا فى تحويل ذلك الأمير من عقيدة امون إلى عقيدة الشمس بعد أن أشعروه بمدى مناصرتهم له إذا هو انحاز إليهم وعاونهم على التقليل من شان إله طيبة . . . ونجحت المحاولة ، وتربع « تحوتمس الرابع »



(شكل ١٧) نموذج لأحد منازل الأشراف بمدينة تل العمارنة .

على عرش البلاد ، وأخذ يشيد بمناقب « رع » متغاضيا عن « أمون » . ولعل أقدم البشارات بقرب ظهور مذهب جديد ، أو تصور جديد عن إله الشمس ترجع إلى عهد هذا الملك ، ومن هذه التباشير تصوير قرص الشمس تمتد منه ذراعان تنتهيان بيدين بشريتين تحيطان بالملك وتحميانه وتغدقان عليه النعم وهو ذات التصوير الذى اختاره « إخناتون » فيم بعد لإلهه « أتون » مع تحوير يلائم عقيدته ،بل عثر على اسم « أتون » نفسه مذكوراً على جعل سجل عليه نفس الملك تمجيداً لذاته ، وإشادة بيأسه وقوته وجهاده فى سبيل إخضاع الشعوب ، وجعلهم من رعايا « أتون » .



(شكل ١٨) تمثال للملك توت عنخ أمون .

مولد دين جديد

لا شك إذن فى أن شرر الثورة الدينية كان قد بدأ يتطاير منذ أيام « تحوتمس الرابع » ووجد مناصرة قوية فى عهد ابنه « أمنحوتب الثالث » ، فقد ذكرنا فيما سبق أن هذا الملك أطلق اسم « بهاء أتون » على الزورق الملكى الذى أهداه لزوجته « تى » ، كما عاش فى عصر « أمنحوتب الثالث » رجل اسمه « رع — مس » جمع بين وظيفتين إحداهما « كاهن امون » ، والثانية « مدير البيت فى معبد أتون » ، بل أكثر من هذا ما ورد فى أحد النصوص من عصر هذا الملك ، أن « پن — بوى » وكان عمل كاتباً لخزانة معبد « أتون » كان يطلب من فرعون أن يتوسط عند الإله « آمون — رع » ليمده بالقرابين الجنازية كل هذا يدل على أن « أتون » كان معترفا به فى عصر « أمنحوتب الثالث » وأنه كان له معبد فى طيبة قبل ثورة العمارنة ، بل وأن الإلهان « آمون » و « أتون » كانا على صلات ودية ، مثلهما فى ذلك مثل « أمون » مع بقية الآلهة فى مصر . ولعل من القرائن التى تدل أيضاً على

مناصرة « امنحوتب الثالث » لدين «رع» أنه قلد ابنه البكر « تحوتمس » منصب كبير كهان « بتاج » رب منف وسمح له ببذل الجهود الكبيرة لإحياء العاصمة القديمة وبعث عقائدها الدينية ونشرها بين الناس من جديد ، غير أن هذا الأمير لم يعمر طويلا ، ومات فى سن مبكرة ، فدفنه أبوه فى جبانة سقارة .

هذه هى الأحداث التى سبقت عصر « إخناتون » ، بل هذا هو الوسط الذى شب فيه عن طوقه ، وهو وسط ، كما أسلفنا القول ، كله يمجد « رع » ويشيد بتعاليمه ، ويود لو استطاع الاستمرار فى السياسة الدينية التى رسمها « تحوتمس الرابع » ، والتى حاول من بعده ابنه « امنحوتب الثالث » أن يتبع خطاه فيها ويسير على نهجها ، لولا أنه كان رجلا لا يعنيه إلا التمتع بترف الحياة ، والأخذ من نعم الدنيا بأوفر نصيب ، فاضطر أن يهادن كلا من الطرفين ، ثم رأى أن مصلحته تحتم عليه أن يميل إلى الطرف الأقوى ينشد مساعدته ، ويطلب منه تثبيت أقدامه فى الحكم ، فتحيز إلى كهنة «أمون» ، خاصة وأنه شعر بمحاولتهم استغلال انتسابه إلى أم أجنبية ، هى « موت — إم — ويا » ابنة الملك الميثانى ، بل لعلهم لوحوا له بإقامة العراقيل أمامه إن لم يجهر بمناصرتهم ، فاستجاب على الفور ، وأجزل لهم العطاء ،

وشيد معبداً ضخماً لأمون فى مدينة طيبة ، فردوا على هذا الجميل بأن أعلنوا على الشعب انه « ابن امون » ومن صلب الإله نفسه ، وسجل « أمنحوتب الثالث » هذه القصة على جدران معبده السالف الذكر .

* * *

يبدو أن «امنحوتب الرابع» (إخناتون) نشا فى «ارمنت» القرية من طيبة (وهى التى عرفت باسم هيليو بوليس مصر العليا) وقام على تعليمه فيها كهنة من أتباع مدرسة لاهوت هيليو بولس وتعمق فى دين « رع » ، ونحن لا نعرف إذا كان سنه الصغير قد سمح بإيفاده إلى «منف» لتكميل تعليمه والقيام بالتدريبات العسكرية، طبقاً للتقاليد الرسمية المتبعة فى البلاط المصرى منذ أول الأسرة الثامنة عشرة ، أم لا ، وأقول سنه الصغير لأننا نعلم انه حكم ست سنوات بالاشتراك مع والده ، ومايقرب من ثلاثة عشر عاما بمفرده ، وهناك من يجزم بأنه مات غير متجاوز الثلاثين من عمره (١) ، ومعنى هذا أنه أخذ يتحمل أعباء الحكم وهو

(١) من المعروف أن مدة حكمه لاتزيد عن تسعة عشرة عاما ، ولم نعثر حتى الآن على جثته ، لأننا نعتقد أنه لم يدفن فى المقبرة التى نقرها لأفراد أسرته =

في سن لا تزيد عن الإثنتي عشرة سنة ، والسؤال الآن : هل لصبي في مثل هذا السن المبكر ان يتحمل اعباء ثورة عاتية ، يقف فيها بمفرده امام اكبر قوة عرفتها مصر وهي قوة كهان أمون ؟ ليس من شك في ان « إخناتون » لم يقف بمفرده في ميدان المعركة وبخاصة في السنين الأولى من حكمه ، ونحن نحس بأصابع أمه « تي » تتولى توجيهه نحو الطريق الذي اختارته له ، ولينفذ لها تلك السياسة التي تهدف إلى إيجاد موازنة بين سلطان الملك وقوة وجبروت كهان « أمون » النهمين الذين لا يقنعون بشيء ولا يفتأون يطالبون بالمزيد ، خاصة ولأن الملك الذي اختارته الظروف لهم كان مريضا ضعيفاً ، اعتقدوا أنه لن يستطيع الثبات امام مطالبهم التي لا نهاية لها . وكانت « تي » سيدة ذكية صقلتها الأحداث . استطاعت بدهائها ان تظل حتى آخر أيام حكم زوجها صاحبة اليد العليا ، ليس في مصر فحسب ، بل في توجيه سياسة الإمبراطورية كلها ، حتى بات ذلك الأمر معروفا

= في التلال الحجرية إلى الشرق من مدينة تل العمارنة ، إلا أن تماثيله تدل على أنه كان رجلا ضعيفا مريضا لا يمكن أن يكون قد عاش طويلا ، كما ترجح أن موته حدث نتيجة لمؤامرة دبرت للقضاء عليه ، ولذلك لا يمكن أن يكون قد عاش أكثر من ثلاثين عاما .

عند الأمراء والحاكمين في أقاليم الشرق ، فكانوا يقدرونها ويبعثون إليها برسائل الود . ولقد وصل إلينا من وثائق عصرها ما يبرز بوضوح مبلغ نجاحها في هذه الناحية (١) . . . لم تكن « تي » ترغب في القضاء على «امون» ، كما أنها لم تفكر مطلقاً في إبراز عقيدة « رع » في إطار يخالف ما عرفه المصريون عن هذا الإله منذ أقدم العصور .

لقد بدأ الملك بأن تسمى باسم تقليدي يحوي اسم « أمون » وهو « أمنحوتب » ، إلا أن اسم العرش الذي اختاره لنفسه كان يحوي ما يدل على ارتباط كبير بعقيدة الشمس ، وإن كان

(١) وصلت إلينا وثيقة مهمة ، عبارة عن خطاب أرسله ملك الميتاني إلى الملكة « تي » بعد وفاة زوجها « امنحوتب الثالث » يقول فيه : تعرفين عني كيف كنت صديقا وفيا لزوجك ، وكيف كان هو صديقا وفيا لي ، وتعرفين ما كنت أكتبه لزوجك ، وما كنت أتحدث به إليه ، وتعرفين أيضا الكلمات التي كتبها زوجك لي . فأنت فقط وسفرائي يعرفون هذا ، بل أنت تعرفين أكثر مما كان يعرفه سفرائي ... ثم في نهاية الخطاب نراه يطلب إليها أن تعمل على المحافظة على علاقات المودة التقليدية بين البلدين وتدفع الملك الجديد أن يأخذ بها ، بل طلب إليها أن تزيد هذه العلاقات ارتباطا بمقدار عشر مرات ، على أن تثبت حسن نيتها بإرسال مقادير من الذهب تزيد عما كان يصله من قبل .

اسم الشمس هو « رع » اى الاسم القديم . واسم العرش هو « نفر خبرو رع — وع إن رع » ويعنى « رع الأشكال الجميلة — إنه الوحيد لرع » ، ولم يكد الملك الصبي يجلس على العرش حتى نراه يطالب بتقديم مظاهر التقديس على نطاق أوسع لرع إله هيليوبوليس واحتفظ بهيئة الإله كآدمى ذى راس الصقر يعلوه قرص الشمس ، إلا ان اسم « آتون » أخذ يظهر ليس كعنصر جديد اوجده الملك ، بل على اساس أنه الاسم الذى أطلق على قرص الشمس منذ عصر الدولة القديمة ، إذ كان هذا هو الاسم الفلكى للشمس كجرم فى السماء دون أن يرتبط بأية صفة من صفات الآلهة . ومن الواضح أن هدف الملك كان يتجه نحو البدء . فى محور الصورة القديمة للإله رع ، وتخليص إلهه منها وتغليب المظهر الروحى له .

وهكذا نكاد نحس تماما أن الاتجاه فى عصر الفترة الأولى من حكم « إخناتون » كان ينحصر فى الاعتراف بالإله « رع » بجانب « أمون » على أساس الصورة الجديدة له تحت اسم « آتون » وأن يدخل هذا الإله ، حاله فى ذلك حال كثير من الآلهة ، فى معبد الكرنك ويعبد فيه بجانب « أمون » ، ورضى كهنة « امون » وسمحوا للملك أن يبنى معبداً كبيراً

لآتون فى حرم الكرنك ، ولعلهم وجدوا فى إصرار الملك وصدق عزيمة أمه « تى » على تنفيذ هذه السياسة ما جعلهم يحنون رؤوسهم قليلا ، مفسرين تراجعهم على أساس أن إلههم الأكبر فى الواقع هو « أمون — رع » الممثل لرع الهيليوبوليتانى ، كما أدركوا أيضاً أن مذهبهم راسخ فى قلوب الناس وبخاصة أهل الصعيد ، كما ان إلههم قد ذاع امره فى كل مكان داخل مصر وخارجها ، وأن الناس اجمعين يؤمنون بأن لاقوة غير قوة أمون ، ولاعز ولاانتصار إلا حول ساحته وعند اقدام عرشه ، وهكذا ولأول مرة سمح « لآتون » ان يأخذ مكانه رسمياً بين الآلهة المصرية وان يعترف به من أصحاب « أمون » . ومن الواضح ايضاً أن « إخناتون » اراد فى أول الأمر مهادنة كهنة امون معللا النفس باكتساب بعضهم لاعتناق دينه الجديد إذ أنه حتى ذلك الوقت كان يحمل الألقاب التقليدية المتوارثة منذ أقدم العصور وهى : « الفحل القوى ، المحبوب من الإلهين الصقر الذهبى ، صاحب التيجان الملكية ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الشمس ، أمنحوتب ، الحاكم المقدس بطيبة ، الأبدى ، المحبوب من أمون — رع » ؛ ولكن هذا كله لم يجعل العلاقات تتحسن بين الملك وكهان طيبة ، بل إن الأحداث تدل على أن

هذه العلاقات اخذت تسوء منذ إعلان إخناتون لبعض صفات إلهه الجديد : [« رع — حور — آختى » الذى يهنأ فى أفقه تحت اسمه الجديد « الحرارة الكامنة فى آتون »] . ونعتقد ان إعلان هذه الصفات كان له وقع الصاعقة فى آذان كهان « أمون » ، إذ تبينوا فيها اتجاهاً جديداً لم يعهدوه من قبل ، ولا بد أنهم تساءلوا عن معنى « الحرارة الكامنة فى آتون » ، بينما كان « رع » ولا يزال بالنسبة للجميع هو « قرص الشمس » بذاته ، وتأكدت ظنونهم عندما أعلن الملك الشاب فى حديث بينه وبين وزيره الأول المدعو « رع ـ مس » ميوله نحو إلهه الجديد . سجل الوزير هذا الحديث فى مقبرته المشهورة رقم ٥٥ بجبانة طيبة حيث نرى صورة يبدو فيها « إخناتون » واقفاً ومن فوقه رسم الإله « رع ـ حور ـ آختى » وبجانبه النص الآتى : « كلمات رع ألقيها عليك : إن الإله علمنى إياها ، وكشف لى عن خباياها ، وهذه الكلمات عرفها قلبى ، وانشرح لها صدرى » . فأجابه الوزير : « إنك الوحيد الذى اختاره « آتون » لكى يلقى إليه بتعاليمه ، والخوف منك يملأ قلوب الناس ، والجبال تستمع إليك كما يستمع الناس » .

هذا النص الوجيز إن دلّ على شىء فإنما يدل على ان الملك

كان يفكر فى اشياء ، وأن بعض كبار القوم فى مصر كانوا يعرفون ما يجول فى فكره . ولا بد من ان كهنة أمون كانوا قد أحسوا بأن هناك مؤامرة تحاك ضدهم ، وأن الأحداث تجرى سراعا . ومما زاد الطين بلة ان التيارات الجديدة التى أقلقت مضاجع كهان أمون ، كان يصحبها تجديدات فنية قلبت الأسلوب الفنى القديم وقواعده رأساً على عقب بل هدمته وأودت به ، لقد طلب الملك من الفنانين ان يتوخوا الأسلوب « التعبيرى » فى فنهم ، وان يتجنبوا المبالغة فى إبراز صور الأفراد فى ذلك الإطار المثالى الذى يمثلهم كما يود الفرد أن يكون عليه وليس كما هو فى حقيقته ، وانصب هذا التوجيه الجديد على الملك نفسه ، فالرسوم الموجودة على أحجار ذلك المعبد الذى شيده الملك « لأتون » فى الكرنك موسومة بذلك الأسلوب « التعبير » الذى يميز حكمه ، والذى يظهر جسمه مشوها بل إن التماثيل الضخمة التى عثر عليها فى معبد الكرنك توضح لنا بوجوهها النحيلة وانخاذها المتكورة أن فن العمارنة كان منفذا منذ اول أيام حكم إخناتون اى قبل ان يبدأ النزاع رسمياً بينه وبين أمون وكهانه .

حدث هذا كله فى أوائل عهد « إخناتون » بالحكم وقبل

ان يعلن ثورته ، إلا ان إفصاحه عن صفات « اتون » وإصراره على اتباع قواعد الفن « التعبيرى » كان ولاشك بمثابة الصفعة على وجه مصرى ذلك العصر ، وتحريض سافر على نشوب المعركة ، ونكاد نعتقد ان الجو بدأ ينذر بالخطر الداهم فى عامه السادس ، وذلك حين أعلن على الناس وصفاً آخر لإلهه « آتون » : « فليعش رع صاحب الأفقين الذى يرسل أشعته من جيله إنه والدى وقد عاد إلينا باسمه الجديد « آتون » » . وحين اخذ يمثل هذا الإله بقرص الشمس تمتد منه عشرات الخطوط التى تمثل كل منها الأشعة تنتهى بيد بشرية تقبض على علامتى الحياة والسعادة . وهكذا عرف كهان « امون » أن الإله الجديدة يختلف تماماً عن آلهة المصريين وأنه هو « القوة الكامنة فى قرص الشمس والحرارة التى تشع منه » وليس كإلههم ممثلا فى صورة بشرية او حيوان مقدس .

وحين وصلت العلاقات بين الملك وكهان آمون إلى هذا الحد من السوء ، وأخذ الجو فى الكرنك يتلبد بالغيوم ، افصح الكهنة عن ثورتهم وأخذوا يحيكون المؤامرات للقضاء على إخناتون ؛ نعرف ذلك من وثيقتين ، اولاهما : عبارة عن حديث للملك نقشه على إحدى اللوحات التى كانت تحدد

منطقة مدينته الجديدة « اخيتاتون » (تل العمارنة الحالية) ويذكر لنا الطريقة التى قابل بها كهان « آمون » أولئك الذين يعلمون الناس الصدق ، وينشرون تعاليمه الجديدة ثم يستطرد فيقول : « أقسم بحياة والدى « اتون » أن الكهنة كانوا أشد إثما من كل الأشياء التى سمعتها حتى العام الرابع ، بل أشد ضررا من كل الأشياء التى وقعت حتى العام السادس .

اما الوثيقة الثانية فهى : عبارة عن تسجيلات وردت مرسومة على جدران مقبرة رئيس الشرطة المدعو « ماحو » ، وتحوى تفصيلات عن مؤامرة دبرها ثلاثة ، احدهم مصرى ، أما الاثنان الآخران فكانا من الأجانب وبدت شعورهما مسترسلة وقصرت لحيتهما ، ولا شك أن هدف هذه المؤامرة كان القضاء على الملك ، إذ نرى الوزير بعد القبض على المجرمين يتوجه بالشكر «لآتون» الذى وفقهم فى الكشف عن هذه المؤامرة قبل تنفيذها .

إخناتون يهجر طيبة

وليس من شك فى أن الهوة التى كانت بين الملك الشاب وكهان « امون » بلغت فى العام السادس من حكم الملك منفرداً ، حداً جعل الأخطار تحف به ، بل تعرضت حياته لمؤامرات هدفها القضاء عليه ، وليس من شك أيضا ان كهان « أمون » اعتقدوا ان الملك المريض الهزيل سوف يمتثل لهم ويتراجع عن غية وسوف تكون الغلبة لأمون فى آخر الأمر ، ولكن الملك كان فى إصراره أقوى مما اعتقدوا ، فلم يلبث أن أعلنها حرباً لا هوادة فيها ضد أمون ، إذ أمر بتجريد حملة من العمال والصناع ، تعاونهم فرق كبيرة من الجيش لبدء حركة إرهاب عنيفة هدفها محو « أمون » ليس من طيبة فقط بل من كل أرجاء الإمبراطورية المصرية ، والقضاء على كهنته ، ولم يلبث أن أتبع ذلك بتغيير اسمه من «أمنحوتب» (أمون راضى) إلى «إخناتون» (المفيد لآتون) ، واصبح بذلك أمر إنكار الإله القديم والإيمان بالإله الجديد شيئا رسمياً . واستحال على الملك البقاء فى طيبة وقرر تشييد

عاصمة جديدة اختار لها مكاناً يتوسط تماماً المسافة بين منف العاصمة القديمة فى الشمال ، وطيبة فى الجنوب ، وهما العاصمتان اللتان تبادلتا الحكم فى التاريخ المصرى هذه هى « أخيتاتون » (افق آتون) . واخذ الملك ينفذ هذا المشروع الكبير فى عامه السادس ايضاً ، وترك لنا نصاً مسجلا فيه طريقة اختياره لمكان عاصمته الجديدة وانه هاجر إليها بمحض إرادته وانه تلقى الوحى لذلك من إلهه وليس لأحد فضل ما فى اتخاذه لهذه الخطوة

« وقف الملك أمام « حور أتون » واضاء عليه اتون بالحياة والعمر الطويل ، وقال جلالته « آتونى بأصدقاء الملك والعظماء وضباط الجند من كل مكان ... وقد أتى بهم فى الحال » .

« وقبلوا الأرض امامه خضوعا لإرادته ، وقال لهم ، انظروا « أخيتاتون » هذه هى التى يريدها » .

« « أتون » لأجعل منها اثراً باسم جلالتى أبديا . إن « اتون » والذى هو الذى قادنى إلى هذا » .

« المكان لأقيم له فيه «اخيتاتون» ولم يقدنى
إليها شريف او احد آخر ... » .

ثم نرى الملك بعد هذا الحديث يستطرد معدداً الأبنية المختلفة التى يزمع إقامتها فى هـذه المدينة مبتدئاً بالمعابد، ثم القصور الخاصة به وبزوجته وامه واولاده، ثم بمنازل الخاصة . وأقسم الملك ألا يترك المدينة ولا يتعدى حدودها الشمالية أو الجنوبية مدى حياته ... .

تميز الموقع الذى اختير لتشييد العاصمة الجديدة «اخيتاتون» (وهى التى نطلق عليها حاليا اسم « تل العمارنة ») باتساع رقعته اتساعاً كبيراً، كما ان الأبنية امتدت امتداداً وصل من الشمال إلى الجنوب مسافة احد عشر كيلو متراً، وما يقرب من الكيلو ونصف من الشرق إلى الغرب، وأقام الملك عدداً من اللوحات الحجرية حدد بها حدود هذه المدينة والأراضى التابعة لها على جانبى النيل، ولا يزال بعض هذه اللوحات قائماً فى مكانه حتى عصرنا هذا . لقد كانت هذه المدينة غير محصنة إذ منع اتساع رقعتها من إقامة سور حولها، وقام تخطيطها على الإكثار من الحدائق وزرع الأشجار على جوانب طرقها .

كان معبد آتون العظيم يتوسط المدينة، وكان مفتوحاً للسماء،

تلج أشعة الشمس إلى جميع جنباته، ويستطيع الناس التعبد لآتون (الحرارة الكامنة فى قرص الشمس) فى كل مكان فيه وبذلك يختلف هذا المعبد تماما عن المعابد القديمة التى كان يخيم على أجزائها الظلام الدامس وتحاط بالأسرار . واتصل القصر الملكى بمعبد اتون، وتناثرت قصور النبلاء والأشراف ومنازل الأتباع والخدم إلى الشمال والجنوب من القصر الملكى، ومن الغريب أن تخطيط المدينة لم يقسمها إلى قسمين احدها لقصور العظماء والآخر لمنازل الأتباع، بل اختلطت المنازل الصغيرة مع القصور الشامخة، وكان المنزل الصغير المعد لسكن اسر الطبقة الدنيا من الناس يتكون من غرفة رئيسية سقفها محمول على عمود واحد، وتتفرع منها غرفتان خلفيتان، وكان هناك درج يصعد إلى سطح المنزل . وعثر المنقبون فى احد المنازل المعد لسكنى رجل لا بد وأنه انتمى إلى الطبقة الوسطى على غرفة استحمام تقع بجوار الغرفة الرئيسية، ونستدل على ذلك من ان ارضية هذه الحجرة وجدرانها قد كسيت من الداخل بلوحات من الحجر الجيرى الأبيض كما حوت حوضاً صغيراً من الحجر الجيرى ايضاً يقوم فى وسطها .

اما قصور الأغنياء فقد كانت فى الواقع عبارة عن مجموعة من

الأبنية متصلة بعضها بالبعض الآخر ويحيط بها كلها سور عال من اللبن . واستطاع المنقبون العثور على قصر بقيت منه أجزاء كثيرة تكفى لإعطائنا فكرة كاملة عن قصور هذا العصر . صاحب هذا القصر كان المشرف على قطعان ماشية معبد أتون الكبير ، وتبلغ مساحته ٧٥ × ٧٠ مترا وتصل ناحيته الشرقية على شارع فسيح يمتد فى وسط المدينة ويتجه نحو الشمال الغربى . وكان القصر ينقسم إلى جناحين ، خصص أحدهما للرجال والثانى للنساء ، ويتكون كل جناح من حجرات مختلفة الأحجام شيدت حول قاعة وسطى ، يقوم سقفها على اعمدة من الخشب ، وزخرفت جدران الغرف برسوم أكاليل الزهور ، وطيور تتدافع فوق اغصان الأشجار . ومما يسترعى النظر فى قصور الأغنياء بتل العمارنة ، إتساع رقعة الحدائق التى احاطت بها ، بينما المدينة شيدت فى منطقة صحراوية جدبة على الشاطئ الشرقى للنيل ، ومن الطريف أن احد اغنياء هذه المدينة حدثنا عن حديقته الغناء التى كانت تحوى أكثر من عشرين نوعاً من الأشجار المختلفة من بينها ٧٣ شجرة جميز ، ١٧٠ شجرة نخيل ، ١٢٠ شجرة دوم ، ٥٠٠ شجرة تين ، ١٢ كرمة عنب ، ٥ أشجار من الرمان ، ٩ أشجار من الصفصاف ،

١٠ من اشجار الأثل ، ٣١ شجرة وارفة الظل ، هذا غير أحواض الزهور المختلفة . وهذا دليل ثابت يبرز لنا مدى تعلق المصرى القديم بالحدائق وولعه بالزهور ، وفى الواقع يندر ان نعثر على منظر لم يسجل المصرى القديم فيه رسوما مختلفة للزهور تارة يشم عبيقها ، وتارة اخرى ينظمها فى باقات كبيرة ، وكانت الزهور من أهم ما قدمه المصرى قرباناً للآلهة والموتى .

اما قصر إخناتون فكان واسع الأرجاء بنى فى اقرب نقطة إلى الشاطئ ، واخترقه شارع واسع شطره إلى قسمين اتصلا بواسطة قنطرة بنيت من الحجر . وتدل اطلال هذا القصر على أنه شيد بتصميم هندسى منتظم ، فيقع مدخل القصر بين صرحين كبيرين كصرحى المعبد (البيلون) ويؤدى المدخل إلى فناء واسع يمتد على جانبيه صفان طويلان من الغرف استعملت كمخازن للقصر ، وينتهى هذا الفناء بصرحين آخرين يتقدمان فناء ثانياً تحيط به قاعات وحجرات المسكن الملكى حيث عاشت اسرة الملك يرفرف عليها الحب المتبادل ، ويلى ذلك حديقة غناء شاسعة تتوسطها بركة كبيرة . أما مكاتب الموظفين فكانت تقع خارج السور الكبير الذى أحاط بالقصر .

تزوج إخناتون من اخته الرشيقة « نفرتيتي »(١) (الجميلة تهادى) ، وفازت (حالها فى ذلك حال حماتها « تى ») بمركز ممتاز . وعندما انتقلت الأسرة المالكة إلى تل العمارنة ، كانت تتكون من الزوجين وابنة واحدة فقط وهى « مريت — اتون » ، وبعد ذلك بعام ولدت الأميرة الثانية « ماكت — اتون» ثم ولدت الأميرة الثالثة «عنخ إس إن با أتون» ، وتوالت بعد ذلك ثلاث بنات أخريات حتى بلغ عدد ذريته ستاً ، ولم يتم الهناء لهذه الزيجة السعيدة بإنجاب ابن يرقى العرش .

كانت حياة إخناتون ونفرتيتى وأطفالهما فى تل العمارنة هادئة تمر سنونها فى التعبد لأتون والتنزه فى حديقة القصر ، وامتلأت

(١) يغلب على الظن أن « نفرتيتى » تنتسب إلى إحدى الأسرات الأجنبية التى كان يعج بها البلاط الملكى ، وكثر الحديث عن الانبعاج الغريب الذى تميزت به مؤخرة الرأس للأميرات وخاصة فى التماثيل والرسوم التى تمثلهن إبان الطفوله المبكرة . وواضح من التماثيل أن هذا الانبعاج لم يكن نتيجة لطريقه خاصة لتصفيف الشعر ، بل هو نتيجة لمحاولة مقصودة . وهناك مايدل على أن هذه العادة كانت متبعة فى قبرص حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ، وكان هدف الأمهات إكساب مؤخرة الرأس انبعاجا يمتد إلى الوراء . ويود البعض أن يرى فى ذلك نوعا من الارتباط بين نفرتيتى وبناتها وبين جزيرة قبرص كوطن أصلى للأم .

المناظر التى سجلها عظماء هذه الفترة ورجالات الدولة الذين هاجروا مع الملك إلى العاصمة الجديدة ، فوق جدران مقابرهم(١) بأخبار الأسرة المالكة ، فتجدهم تارة يرسمون الموكب الخاص بزيارة الملك والملكة وبناتها الصغيرات لمعبد اتون ، وقد امتطى كل فرد منهم عربة خفيفة يجرها زوج من الخيول ، وتارة اخرى يمثلون الاحتفالات الخاصة بإهداء الأوسمة والهدايا المختلفة إلى أصحاب النفوذ من رجالات البلاط ويكون هـذا بأن يقف الملك وحوله افراد أسرته فى شرفة قصره ، وتتميز هذه المناظر بتخلصها من القيود القديمة التى هيمنت على الفن المصرى من ناحية وعلى القيم الاجتماعية من ناحية اخرى . إذ سمح الملك برسمه وزوجته فى مواقف تسودها الصراحة التامة ، فكثيراً ما كانا يستقبلان رجال البلاط والزوجة لا تلبس إلا الأقل من الملابس

(١) لم يخصص أهل العمارنة جبانة لمقابرهم على الشاطىء الغربى للنيل ، كما هى العادة عند المصريين القدماء الذين اعتبروا الغرب المكان المخصص للموتى ، بل إن كلمة « الغرب » فى اللغة المصرية استعملت للتدليل على الجبانة . وكانت مقابر العمارنه منقورة فى التلال الصخرية التى تحد المدينة من ناحية الشرق ، ولابد أن هذه الظاهرة ترجع إلى أن ديانة « أتون » جعلت « للشرق » أهمية تفوق الغرب ، إذ هو المكان المقدس الذى يشرق منه الإله :

وكانا يحتضنان بعضهما او يتبادلان القبلات سواء فى القصر او فى العراء امام الناس ، وكثيراً ما نرى الملك وهو يداعب إحدى بناته وهى تجلس فوق ركبتيه .

وما دمنا نتحدث عن المقابر ، فيجدر بنا ان نذكر بكلمة مدى التجديد الذى ادخله إخناتون على عقيدة المصرى فى الدنيا الثانية ، ونحن نعرف كيف تعلق المصرى بفكرة الحياة بعد الموت ، واعد العدة منذ عصور فجر التاريخ لتحقيق الخلود فيها ، فقام بتزويد مقبرته بكل ما استعمله فى حياته الأولى ، فكدس الأدوات والأثاث والمآكل والمشارب فى حجرة الدفن ، كما زين جدران غرف الزار بشتى انواع المناظر التى تذكره بالنشاط الذى اعتاد القيام به فى حياة الدنيا الأولى ! ولئن كان الشعب المصرى يختلف فى شىء عن غيره من الشعب ، فإنما ذلك فى العناية التى كان يوجهها إلى موتاه ، فقد كان الشويديون والبابليون والإغريق لا يتحدثون كثيراً عند مصير موتاهم على حين كان المصريون لا يألون جهداً فى التفكير منهم بغير انقطاع . لقد عالج إخناتون هذه الناحية بحكمة بالغة ، ولم يتحد عقيدة المصرى فى دنيا الموت بمثل ما تحدى عقيدته فى آلهته الكثيرة . لقد سمح بنقر مقابر كبيرة كبيرة فى الصخر ، كما نقر لنفسه ولأسرته

مقبرة فى التلال الواقعة إلى الشرق من تل العمارنة ، كما سمح لأهل الموتى واقاربهم بتقديم القرابين من المأكولات الطازجة ليتغذى منها الميت ويسعد فى دنياه الثانية ، وسمح ايضاً بوضع جعل كبير محل القلب اعتاد المصرى ان ينقش عليه نصاً فيه تحذير من الميت إلى قلبه بألا يتحدث أمام قاضى محكمة الآخرة (أوزوريس) بسيئاته فيعرقل بذلك ذهابه إلى جنة الخلد ؛ وفى آخر الأمر سمح باستعمال التماثيل الصغيرة المعروفة باسم « أوشابتى » (بمعنى المجيب) وهى تقوم على خدمة الميت فى العالم السفلى . لقد سمح إخناتون بهذا كله ، ولكنه طالب بإهمال كل التعقيدات التى تتطلب القيام بطقوس دينية مختلفة موجهة إلى أوزوريس ومملكته . فإذا كانت هناك مقابر كبيرة قد حفرت فى الصخر ، فقد كان هذا لأن الموتى يجب ان يستقروا فى المكان اللائق بهم ، ولكن العاطفة الدينية التى دفعت فى عصر الدولتين القديمة والوسطى إلى بناء الأهرامات ، والتى دفعت أجداد إخناتون من ملوك الأسرة الثامنة عشرة أن ينقروا مقابرهم إلى أعماق كبيرة فى باطن الصخر ، ويخفوا أماكنها فى مجاهل وادى الملوك ، هذه العاطفة اختفت الآن تماما .

من الواضح ان اهل العمارنة كانوا يفضلون التفكير فى الحياة

بدلا من الموت ، وإذا تحدثوا عن الموتى ، تكلموا عنهم كأنهم يسكنون مقابرهم ، وأن حياتهم فيها سوف تجرى على نفس النمط الذى جرى فى حياة الدنيا الأولى ، أى ستكون حياتهم مليئة بالفرح والسرور برؤية إلههم أتون والتعبد إليه وبالتمتع بالشمس واشعتها التى تكسب الأرض ومن عليها الحياة والرخاء ، فحينما تطلع الشمس توقظ الميت فيقوم مسرعا ليغتسل ويرتدى ملابسه ، ويخرج إلى باب المقبرة ليصلى للآله ثم يذهب إلى صالة المعبد الكبرى ليخدم الشمس ويتوجه بعد ذلك إلى حديقته التى زرعها بنفسه ليتنزه فيها ويلهو حول بركته التى تتوسط الحديقة .

وليس من شك فى أن هذا الاتجاه قضى تماما على كل ماحوته عقيدة المصرى من تخيلات ترسبت فى عقولهم عن مملكة أوزوريس وعن المحاكمة التى يتعرض لها الناس بعد موتهم ، وخروجهم منها « مبررين » ، إذ تبز أعمالهم الحسنة سيئاتهم فيدخلون حقول « أوزوريس « كبررة » لا ذنوب عليهم .

وهكذا نجح إخناتون فى تحريم ديانة اوزوريس(١) ،

(١) لقد كانت أمنية كل مصرى منذ أواخر الدولة القديمة أن يدفن فى « أبيدوس » (العرابه المدفونه بجوار البلينا حاليا) المقر المقدس للآله « اوزوريس » (أول سكان الغرب) أما من لم يستطع بناء مقبرته هناك ،=

بل لم يحدث ان ذكر اسمه فى نقش من النقوش التى وردت على جدران مقابر العمارنة ، بل ولم تعد الصلوات الجنازية توجه إلى آلهة العالم السفلى امثال أوزوريس وأنوبيس ، ولكنها كانت ترفع إلى اخناتون راساً ، واحياناً اخرى ترفع عن طريقه إلى آتون ولعل فى المثل الذى اعطيه هنا صورة واضحة لما كان يشعر به اتباع الملك من المؤمنين بدعوته الدينية :

« طوبى له ذلك الذى يستمع إلى حكمة الحياة
التى تنطق بها . . .
فلتضمن لى حياة طويلة وسعيدة كأحد أتباعك
ولتجعلنى أحظى بدفنة طيبة . . .

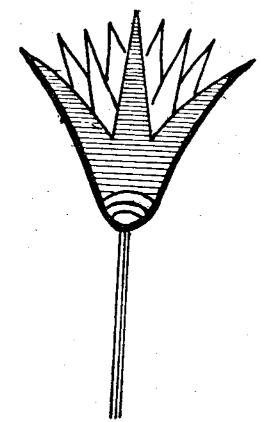
= فكان عليه — على الأقل — أن يزور الإله هناك وأن يقيم لنفسه فيها لوحة تحمل اسمه حتى يضمن لنفسه مكانا بين الممتازين من الموتى . وتدل مجموعات الآثار فى العالم على ما كان لهذه العادة من انتشار ، إذ أغلب الشواهد والنصب الصغيرة من الدولة الوسطى قد عثر عليها فى أبيدوس . ومنذ عهد الدولة الحديثة أصبح لزاما على الميت قبل أن يدفن فى مقبرته أن يحج إلى أبيدوس : فتدخل جثته المحنطة إلى المنطقة المقدسة ، كأنها فرد جديد من رعية الإله ، وعليها أن تشترك فى حفلات أعياده ، ثم تعود الجثة بعد أن تتبرك لتوارى فى مقبرتها .

ولتسمح لى أن استمع إلى صـوتك العذب

فى المعبد .

حين تؤدى الصلاة لوالدك أتون الحى » .

هذا الدعاء، ومثله كثير، يوضح ان حياة الدنيا الثانية وسعادة الناس فيها تتوقف على إرادة الملك الإله الطيب الذى يملك التوسط بين شعبه وبين إلهه آتون .



أنشودة آتون

ومن أهم الشخصيات التى لعبت دوراً كبيراً فى بلاط العمارنة ، كان « آى »[1] الذى نقش منظراً لنفسه ولزوجته فوق جدران مقبرته المنحوتة فى الصخر فى جبانة العمارنة وهى المقبرة التى لم يقدر له ان يدفن فيها ، إذ تولى العرش بعد موت « توت عنخ آمون » ونقر لنفسه مقبرة ملكية فى منطقة

(١) لانعرف الكثير عن « آى » وأسرته التى نشأ فيها ، تزوج من سيدة رفيعة الشأن فى البلاط الملكى ، إذ كانت مرضعة الملكة « نفرتيتى » ، واكتسب من هذه الزيجة حق حمل لقب مهم وهو « والد الإله » ، اعتز به إلى درجة أنه تلقب به عندما ارتقى عرش مصر فيما بعد . وكان « آى » من أشد المتحمسين لدين « أتون » ، ومن أكثر المقربين إلى « إخناتون » ودليلنا على ذلك أن الملك سمح له بنقش كلمات أنشودة « أتون » فوق جدران مقبرته فى حين منع بقية رجالات البلاط من التعرف عليها ، وحتم أن تكون صلتهم بأتون عن طريقه هو ، ونكاد نعتقد أن هذا الدين لم يعرف دقائقه إلا أفراد الأسرة المالكة ، إذا قال إخناتون فى أكثر من مناسبة أن « أتون » كان إلهه الشخصى : « إنك فى قلبى ولا يوجد من يعرفك غير ابنك الذى أرشدته إلى نواياك وإلى قوتك » . وعلى ذلك نستطيع أن نحكم علاقة « آى » بالأسرة المالكة من السماح له بنقش أنشودة أتون على جدران مقبرته .

وادى الملوك الغربى . نعود فنقول إن هذا المنظر يمثل آى وزوجته راكعين ، ويرتلان أنشودة أتون المشهورة ، التى اعتبرت بمثابة الأساس الذى قامت عليه ديانة هذا الإله الجديد ، والتى قال عنها المؤمنون بهذا الدين إن الملك لم يحاول مرة أن يطلعهم على نصها . وهذه الأنشـودة تعتبر بحق قصيدة شعرية رائعة تترنم بالشمس خالقة الوجود وكائناته ، ليس فى مصر فقط بل فى العالم اجمع . وفيما يلى نصها :

« إنك تشرق جميلا فى أفق السماء
يا اتون الحى يا بدء الحياة
إنك إذا أشرقت من جبل النور الشرقى
ملأت كل بلد بجمالك ومحبتك
إنك جميل . إنك عظيم
إنك تتلألأ عالياً فوق كل بلد
إن أشعتك تحيط بالأراضى كلها وبكل شيء خلقته
لأنك رع ، وتستطيع الوصول إلى نهايتها .
وتستطيع ان تجعل كل بلد أسيراً لك
إنك الإله الذى دان الجميع بحبك
إنك ناء ولـكن اشعتك على الأرض
إنك تشرق على وجوه الناس

ولا يستطيع احد منهم ان يتكهن بسر قدومك

* * *

حينما تغيب فى أفق السماء الغربى
أظلمت الأرض وأصبحت تبدو كأنها ميتة
فيستقر الناس فى حجراتهم وقد غطوا رؤوسهم
وانخفض صوت زفيرهم
ولا ترى عين عيناً اخرى
ويتسلل اللصوص إلى المنازل
ويولون الفرار دون أن ينتبه أحد إليهم
أما السباع فهى تخرج من عرينها
والثعابين تنساب وتلدغ
ويخيم الظلام ويعم الأرض السكون
عند ما يذهب خالقها ليستريح فى أفقه الغربى

* * *

وإذا أصبح الصباح تشرق متألقا فى الأفق
وعندما تضيء كأتون اثناء النهار
تبدد الظلام ويستيقظ كل من القطرين مهللا

ويصحو الناس ويقفون على اقدامهم
لأنك أنت الذى توقظهم
فيغتسلون ويلبسون ملابسهم
وترتفع أذرعتهم متعبدين لشروقك
ثم ينتشرون فى الأرض يباشر كل منهم عمله
أما الماشية فهى فرحة فى مروجها
والأشجار والنباتات فهى تزدهر
والطيور فهى ترفرف تاركة أوكارها
وتسبح أجنحتها بحمدك
وتقفز الحملان على أقدامها
وكل ما يطير أو يحط تهتز أعطافه
لأنك تشرق من اجله

* * *

وتبحر السفن شمالا وجنوبا
وتعج الطرق بالناس
أما الأسماك فى النهر فهى تقفز أمامك
إن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر
إنك تعطى الحياة للجنين فى أحشاء النساء

وإنك تصنع من النطفة الرجال
وإنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه
وتسكن روعه فلا يبكى
إنك بمثابة المربية للجنين وهو لا يزال فى بطن امه
إنك تهب نسيم الحياة لكل إنسان خلقته
إذا خرج الجنين من بطن أمه
جعلت من ذلك يوم ولادته
ثم تفتح فه ليتحدث
وتدبر ما يحتاج إليه
وإذا صاح الفرخ فى بيضته
فإنك تهبه الهواء لتبقيه حيا
ثم تمده بالقوة حتى يثقب بيضته
ويخرج منها وهو يصيص بكل ما لديه من قوة
ويسعى على قدميه إذا خرج منها

* * *

ما اكثر مخلوقاتك
وما اكثر ما خفى علينا منها
انت إله يا اوحد ولا شبيه لك

لقد خلقت الأرض حسبما تهوى انت وحدك
خلقتها ولا شريك لك
خلقتها مع الإنسان والحيوان كبيره وصغيره
خلقتها وكل مايسعى على قدميه فوق الأرض
وكل ما يحلق بجناحيه فى السماء
خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر
وأقمت كل إنسان فى مكانه
ودبرت لـكل إنسان ما يحتاج إليه
وجعلت لـكل منهم أيامه المعدودة
لقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم
كما اختلفت أشكالهم والوان أجسادهم
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية

* * *

لقد خلقت النيل فى العالم السفلى
ودفعت به إلى اعلى حسب مشيئتك
ليحفظ أهل مصر احياء
وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك
وانت سيدهم جميعاً ، الذى يشغل نفسه من أجلهم

أنت يا شمس النهار
يا عظيما فى جلالك

* * *

انت الذى يعطى الحياة لـكل البلاد الأجنبية البعيدة .
لقد جعلت نيلا يهبط إليهم من السماء
وجعلت له امواجا تتدافع على الجبال كالبحر
لتروى حقولهم التى فى قراهم
ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية
وهبت نيل السماء لشعوب الجبال
فأحييت حيوانها وكل من يسعى فوق اقدامه
أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلى

* * *

تغذى اشعتك كل حديقة
ويحيا وينمو كل نبات إذا ما أشرقت عليه
لقد خلقت الفصول لـكى تحيي كل مخلوقاتك
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك
ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك

لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق فيها
وحتى ترى كل ما صنعت
وذلك عندما كنت وحيدا
أنت الوحيد الذى يشرق فى صورته كآتون الحى
ساطعاً متلألئاً رائحاً وغادياً
لقد خلقت من نفسك تلك الأشكال التى تعد بالملايين
مدنا وقرى وقبائل وجبالا وأنهاراً
كل العيون ترنو إليك
لأنك أنت آتون الذى يشرق فى النهار على الأرض

* * *

وحينما تغيب
وكل الخلق الذين أمددتهم بالحياة
لكى لا تجد نفسك وحيدا بعيدا
يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما خلقته
إنك فى قلبي
وليس هناك من يعرفك
غير ابنك « نفر خبرورع — واع إن رع » (إخناتون)
إنك انت الذى ثقفته بتدبيراتك وقوتك

إنك أنت الذى أمددته بالحكمة

* * *

أنت الذى صنعت الدنيا بيديك
وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم
إذا ما أشرقت عاش الناس
وإذا ما غربت ماتوا
إنك أنت الحياة
ولا يحيا الناس إلا بك
تستمتع العيون بجمالك حتى تغرب
فإذا غربت فى الأفق الغربى
ترك الناس أعمالهم كلها
ولكن عندما تشرق ثانية
يزدهر كل شيء لأجل الملك
لأنك انت الذى خلقت الأرض
وأنت الذى خلقت الناس لأجل ابنك
الذى ولد من صلبك
ملك مصر العليا ومصر السفلى
الذى يحيا فى الحق

سيد الأرضين « إخناتون »
الذى يحيا إلى الأبد
وكذلك من أجل كبرى الزوجات الملكية محبوبته .
سيدة الأرضين « نفر نفرو آتون » — « نفرتيتى »
التى تحيا وتزدهر دائماً وإلى الأبد

* * *

هكذا استقر « إخناتون » فى مدينته الجديدة يحيط به نفر من رجالات الدولة يبشرهم بدينه الجديد ، ويترنم بأنشودته التى تعتبر قصيدة شعرية رائعة تشيد الشمس خالقة الوجود وكائناته ، ولم تقتصر فى خلقها على مصر بل على العالم أجمع . فواضح أن هذه الأنشودة تجعل من آتون إلهاً لكل الناس ، فهو يشمل فى مداه العالم كله ، و يعترف الملك فى نص آخر نقشه على إحدى لوحات الحدود السالفة الذكر والتى حدد بها منطقة تل العمارنة ، بأن الاعتراف بسيادة إله الشمس كان شاملا وأن جميع البشر يعترفون بسلطانه :

« إن آتون خلقهم لنفسه هو
لجميع الأراضى وأهل بحر إيجه يحملون ضرائبهم
ويأتون بجزيتهم فوق ظهورهم

ويتوجهون إلى الذى اوجد حياتهم
وهو الذى يحي البشر بأشعته وينشقون الهواء » .

ليس من شك فى أن اخناتون أراد أن يقدم للبشرية دينا يعتنقه كل الناس فى كل البلاد ، ويجعل هذا الدين يحل محل القومية المصرية التى التزمها أهل مصر منذ أول العصور ، فلا غرابة إذا اعتبرنا « إخناتون » قد سبق العصر الملائم لظهوره بقرون عدة ، ولا غرابة أيضاً إذا كان المصرى فى ذلك العصر لم يفهم مغزى دياناته ولم يستطع التعرف على كنهها . لا يسع القارىء لهذه الأنشودة إلا ان يقول بأن إخناتون يمثل لنا عبقرية تم نضوجها في وقت سابق لأوانها وأن ظهورها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان ميلاداً مبكراً جداً لها .

ثورة إخناتون الاجتماعية

ولعل التاريخ البشرى لم يذكر لنا عصراً حدث فيه ماحدث فى عصر « إخناتون » من دعوة حاسمة لتغيير شامل فى كل مظاهر الحضارة ، لم تنصب فقط على المعتقدات الدينية ، بل تعدتها إلى الأسلوب والقواعد الفنية التى ترسبت فى تقاليد شعب عريق مثل الشعب المصرى ، كما لم يحدث قط أن استطاع إنسان التأثير على القواعد الأساسية للفن دون ان يكون هو نفسه فناناً ، بمثل ما أثر إخناتون على الفن المصرى . وللحكم على فن العمارنة يجب علينا أن نتفهم اصوله و نتعرف على أسلوبه، و نتذوق جمال خطوطه ، ولا نستطيع ذلك إلا بعد مقارنة دقيقة بينه و بين ما انتجه الفنان المصرى ، قبل إخناتون و بعده ، ولعل التعبير عن خصائص فن العمارنة وإبرازه فى الإطار المناسب ، ليس بالمهمة السهلة الهينة ، واخشى ما اخشاه أن الألفاظ فقط سوف لا تنجح فى التدليل على خصائص هذا الفن ، وخاصة إذا قراها قارىء لم تتح له فرصة المقارنة والدراسة الفنية العميقة .

ولست اشك ان دراسة فن العمارنة يجب أن تسبقها محاولة

لفهم العناصر الحقيقية التى أثرت فى أسلوبها و هى العناصر التى نستطيع أن نجملها فى النقاط الثلاث الآتية :

أولا : أسلوب الحياة المستمد من الحقيقة البحتة .

ثانياً : التعلق بأهداب التعبير بخطوط لينة متناسقة تكسب الصورة جمالا وطراوة .

ثالثاً : إصرار الفنان على إدخال عنصر الحساسية على صورته.

نحن نعلم كيف اعتقد المصرى منذ اول عصوره فى الوهية ملوكه ، و نعرف أن الملك كان يسمى دائماً « الإله الطيب » او الإله الكبير ، واضطر المصرى متأثراً بقداسة الصورة [1] ان

(١) من المعروف أن الجماعات البدائية ربطت بين عالم الخيال وعالم الواقع ، حقيقة إنها تستمد تخيلاتها من الواقع ولكنها فى نفس الوقت تكسب واقعها الكثير من عالم الخيال . لقد تصورت آلهتها شخوصا يعيشون ويتعاملون ويتزاوجون وينجبون تماما كما يحدث فى عالم الواقع ، ولكنهم فى نفس الوقت يعتقدن أنها تعيش بمنأى عنهم فى عالم الخيال . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعتقدوا اعتقادا راسخا أن فى استطاعتهم أن يستمدوا من عالم الخيال قوى مختلفة تساعدهم على التأثير بشكل معين على بعض أعمالهم وافعالهم فى عالم الواقع ، هذه القوة الأخيرة هى ماتسميه بالسحر إن السحر فى واقع الأمر ليس إلا تلك القوة التى يستمدها الإنسان من عالم الخيال ليستغلها فى عالم الواقع . ولعل أول محاولة للانسان الفطرى فى استعمال قوة السحر، كانت تلك الصور=

يصور ملوكه فى إطار يتفق مع تأليههم ، بمعنى أن صورة الملك

= التى رسمها فى كهوفه لحيوانات الصيد . ولابد أن الفنان القديم قد رأى فى تصويره لحيوان يعينه قوة سحرية تؤثر عليه وتجعله فريسة سهلة القنص ، بل كان الإنسان الفطرى يربط بين الحيوان وصورته . وبقيت الصورة تلعب دورها السحرى عند الإنسان طوال حياته الفطرية ، ولازمته أيضا فى فترة الاستقرار التى تعارفنا على تسميتها العصر الحجرى الحديث .

تطورت هذه الرسوم واستطاع المصرى أن يخترع الكتابة الهيروغليفية التى لم تكن سوى صورا عبر بها عن الواقع ، الا أنه كا يعتقد أيضا فى العلاقة بينها وبين القوة السحرية . اعتقد المصرى بوجود علاقة خفية بين الإنسان واسمه المكتوب ، بل اعتقد أن الاسم المكتوب يكون الجزء الحي منه بل هو العنصر الذى يقوم شخصيته وقوته ، ومن أجل هذا نرى المصرى ينتقم من عدوه بمحو اسمه المكتوب على جدران مقبرته وذلك بعد موته،اعتقد المصرى أن فى محو الاسم قتل أبدى ، إذ يسلبه بهذا العمل ذلك العنصر القوى الذى تقوم عليه حياة الإنسان فى عالم الدنيا الثانية . وانتقلت القوة السحرية للكتابة .

الى الصورة التى تمثل شخصا . ومن أجل هذا كان الفن عند المصرى القديم سواء كان نقشا أم نحتا ، يعنى شيئا آخر يختلف تماما عما يعنيه لنا لقد كانت الصورة بالنسبة إليه لاتعنى خطوطا يتمثل فيها الانسجام الفنى فقط ، بل هى تحوى عناصر حية . إن الرسوم التى تغطي جدران المعابد والمقابر بما تحويه من أفراد وحيوان أو نبات وأدوات ، تتحول إلى كونيتها الحية المادية ، بل وتدب فيها كل عناصر الحياة ، وإنها ستؤدى نفس الغرض الذى كانت تؤديه لنفس الشخص أثناء الحياة الدنيوية بل أكثر من هذا كان يتحتم معاملة الأشخاص فى الفن طبقا لمركزهم فى الحياة العامة فالملك يبدو فى رسمه أكبر حجما من موظفيه كما يبرز هؤلاء فى حجمهم صور الإتباع والعامة .

تمثله يافعاً ، قويا ، كامل الأعضاء ، لا نقص فيه ولا عيب ، ولعل هذا يعطينا فكرة عما شعر به المصرى من غصة عندما طلع عليه إخناتون بذلك التجديد فى تصوير الملك «الإله الطيب» تصويراً يستمد أصوله من الحقيقة والواقع ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى عرض واقعي لحياة الملك اليومية ، فأمر فنانيه أن يرسموا له صورا وهو يأكل ويشرب مع أفراد أسرته وهو يداعب بناته ، وزوجته تضع قلادة حول رقبته ، وهو واقف وقفة كلها استرخاء واضعاً عصاة طويلة تحت إبطه معتمداً عليها وتقف أمامه زوجته ؛ إن هذه الصور كان لا يمكن مطلقاً لأى مصرى أن يحلم برؤيتها للملك المقدس قبل عصر إخناتون ، بل واختفت تماماً بعد عصره .

ولم يكن الأمر قاصرا فى ذلك على الملك وأسرته بل اتبع اهل العمارنة هذا الأسلوب فى تسجيلاتهم سواء منها ما يمثلهم أنفسهم أو ما يمثل أتباعهم وخدامهم ، وأصبحت الصورة تمثل لنا حشدا من الناس على اختلاف طبقاتهم وتنوع حركاتهم ، وتنبض بحياة تستمد أصولها من الواقع والحقيقة . ومما يجدر ذكره هنا أن اللغة التى سجل بها أهل العمارنة أحداثهم شملها هذا التجديد ، فلم تكتب بذلك الأسلوب الرصين التقليدى

الذى اتبعه المصرى منذ اول عصوره التاريخية ، بل كتبها باللغة التى يتكلمها الناس فعلا ، تحوى « ال التعريف » « والأفعال المساعدة » وكل ما استعمله أهل العصر من تعبيرات فى حياتهم اليومية ، لقد بلغ عشق الملك للحقيقة والواقع حدا جعله يرفع من اللغة العامية ويجعلها اللغة الرسمية للمعبد والبلاط ويلغى تلك اللغة القديمة التى كان الرجل العادى لا يفهم منها إلا ذلك القدر الذى يفهمه الريفى الحالى من لغة العرب فى عصر الجاهلية .

أما الخطوط اللينة التى اتبعها فنان العمارنة فهى ظاهرة لا بد لكل عاشق للفن المصرى أن يتبينها عند المقارنة بين أساليب الفن قبل وبعد عصر اخناتون ، ومن المعروف ان رجال متحف الجامعة بلندن قد وضعوا جزءا من تمثال لإحدى بنات إخناتون ، فترة طويلة فى القسم اليونانى به ، اعتقادا منهم أنها من صنع أحد فنانى العصر اليونانى ، ولعلهم كانوا على حق فى اعتقادهم هذا ، فليونة خطوط هذا التمثال وطراوة أعضاء الجسم الذى يكاد ينبض بالحياة من وراء الرداء الشفاف الذى ارتدته الأميرة ، لبعيدة كل البعد عن قيود الفن المصرى المعروفة ، وهى القيود التى التزمها الفنان المصرى طوال العصور ولم يستطع التخلص منها إلا فى عصر العمارنة .

وعنصر الحساسية امر جديد على الفن المصرى ، ادخله فنان العمارنة واستطاع تأديته ببراعة تستحق الإعجاب ، هناك رسوم أضفى الفنان على أعضاء الإنسان فيها ما يومىء بمشاعر صاحبها واحاسيسه ، فهناك ذراعان تتمثل طريقة رفعهما إلى اعلى وحركات أصابع اليد على ما يفيض به قلب صاحبها من تضرع وإيمان نحو الإله آتون ، وهناك ذراع مدته امراة تندب عزيزا لها ونرى بوضوح طريقة تمثيل اليد وانحنائها البسيط إلى اسفل مع التواء أصابعها ما يبرر مدى حزن السيدة وما تشعر به من آلام أضفت على أطراف يدها نوعا من التشنج .

ليس من شك فى أن هذه الاتجاهات الجديدة التى سبق ذكرها قد طبعت فن العمارنة بطابع جعله يختلف اختلافاً واضحاً عن الفنون التى سبقته والتى اتت بعده ، ومن أجل هذا يود البعض ان يبحث جاهدا فى إيجاد نوع من التاثير الأجنبى ، لعل إخناتون يكون قد استوحى منه القواعد الجديدة فى فنه . هؤلاء يؤكدون تأثر فن العمارنة بفنون شعوب البحر المتوسط وخاصة بفن جزيرة كريت وبفن ميسينا فى شبه جزيرة البلقان ، ويعتمدون فى ذلك على أن الفن المصرى لم يعرف الحركة كما لم يحاول الفنان ان يكسب اجسام البشر والحيوان فى تحركهم تلك الالتواءات

فى الأعضاء التى تتناسب مع الحركة التى يقوم بها الجسم ، ولنضرب لذلك مثلا نختاره من المناظر التى حرص كل شريف على تصويرها فوق جدران مقبرته ، وهو منظر صيد الحيوان ، فكان الفنان يرسم مجموعة من الحيوانات المختلفة نافرة هاربة امام صيادها ، وهو فى هذه الحالة كان يجب أن يضفى على أعضاء جسم كل منها ما تتسم به من تقلصات تتناسب مع حركات الجرى والهرب ، ولكنه فى واقع الأمر كان يرسمها كأنها واقفة ترتكز بأقدامها الخلفية والأمامية على الأرض ، اللهم إلا انحراف بسيط للأرجل الأمامية نحو الأمام وللأرجل الخلفية نحو الخلف واستمر الفنان يمثل مناظر صيد الحيوان بهذه الطريقة حتى عصر العمارنة ، وفجأة رأيناه يمثلها فى اوضاع مختلفة ويمثل حركات الجرى والهرب اصدق تمثيل فترتفع الأقدام الخلفية فى الهواء فى حين ترتكز الأقدام الأمامية على الأرض ، ونجد ظهور الحيوان وقد تقوست إلى اسفل وبرزت عضلات كتفيها ، وهذه الطريقة بالذات ظهرت بوضوح فى الفن الكريتى والمسينى منذ الألف الثانية قبل الميلاد وبقيت من أهم مميزاته فى العصور التالية.

غير هذا المثل الذى أوضحناه هناك ايضا مثل آخر : وهو

الطريقة التى اتبعها فنان العمارنة فى رسم النباتات والزهور وأسراب الطيور التى تقف على قممها والتى تهم بفرد أجنحتها لتطير عنها إذا أحست بخطر أخذ يقرب منها ، لقد أبدع فنان العمارنة فى صياغة هذا الموضوع فى رسومه بحيث جعله ينبض بالحياة المملوءة بالحركة ، ويقول أصحاب نظرية تأثر فن العمارنة بفنون أجنبية إن هذا الأسلوب الفنى فى رسم النباتات والزهور وأسراب الطيور قد أخذه الفنان فى عصر إخناتون عن الفن الكريتى .

لقد قلنا فيما سبق إن مصر كانت منذ اول الأسرة الثامنة عشرة ، قد أخذت تتعرف على حضارات جديدة وأن المجتمع المصرى باختلاطه مع الشعوب الأخرى ، قد أخذ يخرج من عزلته الحضارية ويسمح بدخول عناصر أجنبية على حضارته ولكن لست أشك أن إخناتون كان فى تجديداته التى أدخلها على الديانة وعلى التقاليد وأسلوب الفن : مصرياً قلباً وقالباً ، ولقد سبق أن أوضحت كيف أن عناصر التوحيد التى أبرزها إخناتون فى أنشودته ، مصرية الطابع عرفها المصرى ونادى بها من قبل ، ولو ان الإطار الذى حوى هذه العناصر قد اختلف

بعض الشيء فى عصر إخناتون ومن اجل هذا لست أشك أن الفنان المصرى . عند ما انطلق من القيود التى كبلته ، استطاع أن يأتى بالمعجزات ، ولو أنه قد قدر لإخناتون ان يعيش فترة من الزمن تطول عما عاشها لكنا قد وصلنا إلى تلك القواعد الفنية التى أظهرها الفن الإغريقى منذ القرن الخامس قبل الميلاد .



الدعوة الجديدة تصاب بنكسة

نعود فنقول بينما كانت المدينة الجديدة تموج بأتباع إخناتون يبتهلون لآتون ويترنمون بأنشودته ، كان العمال والصناع يعملون على تنفيذ أوامر الملك فى محو اسم « آمون » من كل عمائره ، والتنكيل بكهانه ، واشتد النزاع وانتشر الفزع وعم اليأس أهل طيبة ، ومرت الأيام والحالة تزداد سوءاً ، والعراك يشتد تأججاً ، وهنا اضطرت الأم الملكية « تى » إلى أن تتدخل . لقد ظلت هذه السيدة تعيش فى قصرها بطيبة بعد موت زوجها ، ولا شك انها أحست بالخطر الداهم الذى أخذ يحيط عصر كلها نتيجة لسياسة ابنها ، فأخذت تسعى لتخفيف وطأة الأزمة وسارعت بالسفر إلى العاصمة الجديدة فى العام الثانى عشر من حكم الملك ، ولقد سجلت أخبار هذه الزيارة فى مقبرة أحد أشراف هذا العصر المدعو « حوى » ، ويبدو من هذه التسجيلات أن الأمور كانت تسير من حيث المظهر الخارجى فى إطار ودى ، فمثلا كانت « تى » تصاحب أفراد الأسرة الملكية فى زياراتها لمعبد « آتون » بل وكانت

تشترك معهم فى العبادة , كما قبلت الجلوس أمام أحد مثالى العمارنة لينحت لها تمثالا. ومن اهم مناظر هذه المقبرة المنظر الذى يصور الحفلة التى أقامها الملك لأمه ، وظهر فيها أن « تى » .كانت قد استصحبت معها ابنتها الصغرى « باكت آتون » . إلا ان هذه الزيارة حملت بين طياتها أهدافا اخرى ! إذ لا يمكن أن تحدث هذه الزيارة فى العام ذاته الذى بدأ إخناتون يغير فيه سياسته ومن غريب أمر هذه الزيارة أنه قد جاء على اثرها حادثان اولهما : أنه قد حدث شقاق بين إخناتون وزوجته المحببة إليه « نفرتيتى » ، واتسعت الهوة بين الزوجين إلى درجة أن تركت الملكة القصر وذهبت إلى منزل يقع فى أقصى الشمال من المدينة ، وعوقبت بأن حرمت من لقبها الذى منحه لها زوجها وهو « نفر ـ نفرو ـ اتون » وأعطى هذا اللقب إلى الأخ الأصغر للملك وهو «سمنخ كارع » الذى زوجه من ابنته «مريت اتون » واشركه معه فى الحكم .

أما الحادث الثانى فهو أن «سمنخ كارع» أوفد هو وزوجته إلى طيبة لتهدئة الحالة فيها ، ولعلهما توجها إليها تحت ضغط من « تى » كمندوبين للملك ...

ولسنا نشك أن «سمنخ كارع» حاول أن يهادن كهنة آمون ، بل إن الاشتراك فى الحكم لم يكن إلا وسيلة لتغطية موقف

إخناتون الذى اقسم كما اسلفنا القول ألا يترك عاصمته الجديدة طالما كان على قيد الحياة ، وربما كانت صحته قد ساءت إلى درجة لم تمكنه من الانتقال إلى طيبة والتفاهم مع أعدائه ، واعتقدت « تى » ان الشريك الصغير فى الملك سيعمل على إنقاذ الدولة من الهوة السحيقة التى تردت فيها ، ولم يكمن الخطر فقط فى الانقسامات المذهبية ، بل فى الثورات التى تفشت فى مستعمرات مصر بآسيا . فبينما كانت الأيام تمر سراعا على إخناتون وهو قابع فى قصره بمدينة العمارنة يتعبد لإلهه ، أخذت الرسائل(١) تنهال على مصر من أمراء مدن سوريا وفلسطين، طالبين النجدة العسكرية للقضاء على عوامل الفتنة والثورة التى كانت قد تفشت بين الناس فى مناطق الإمبراطورية المصرية ، ولكن الملك كان يسد أذنيه ولا يستجيب لطلباتهم ، وانتهى الأمر بأن ضاعت كل المناطق التى ضمها أجداده الجبابرة بحد السيف إلى بلاده ، وكان على خلفائه

(١) عثرت إحدى الفلاحات على مجموعة من اللوحات الطينية المجففة أثناء نقلها لبعض السباخ فى مدينة العمارنة وأهمل الناس أمر هذه اللوحات لأنها حوت كتابات لم يفهموا كنهها ، ولكن مالبث العلماء أن عرفوا أمر هذه اللغة وأنها كتابات إسفينية باللغة الأكدية ، وأن هذه اللوحات (بلغ عددها ٣٣٧) تحوى رسائل توضح العلاقات الدولية بين مصر والبلاد المتاخمة مثل سوريا وفلسطين وبابل وأشور وميتانى وخيتا منذ عصر الملك امنحوتب الثالث وطوال عصر إخناتون.

منْ ملوك الأسرة التاسعة عشرة أن يبدأوا من جديد ويستعيدوا اجزاء الإمبراطورية المصرية جزءاً جزءاً . نعود فنقول إن « سمنخ كارع » ذهب إلى طيبة محاولا إنقاذ البلاد ومبتدئاً بعرض المدنة على كهنة أمون ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح وبقى الشعب الطيبي على عدائه لإخناتون ...

فترة عصيبة ولا شك ، لا بد وأنها جعلت الملك الفليسوف ، العاشق لأتون ، المبتهل له المحب للسلام ، الذى كره الحرب وحاول جهد استطاعته أن يمجد الحق ويرفع من شأن « الماعت » ، جعلته يئن تحت عبء ثقيل من المسئوليات ويجثم على صدره شعور بخيبة الأمل لا حد له . . . ينظر حوله فيرى حبيبته المفضلة « نفرتيتى » لا تستطيع أن تتفهم ما يجرى فى البلاد وترفض أن تترك المثل العليا للثورة وتصمم على السير فى طريق العداء المر لكهنة آمون وتقبع فى دارها التى انتقلت إليها فى شمال المدينة ، تشاركها الحياة فيها ابنتها الثالثة « غنخ إس با آتون » وأخوها غير الشقيق والذى تزوج ابنتها فيما بعد « توت عنخ آتون » ، ثم أمه « تى » التى ساعدته فى أول الأمر وساندت دعوته لعبادة إله واحد ودفعته دفعاً لإثارة حرب لا هوادة فيها ضد آمون وكهنته ، أصبحت الآن ترى رأياً آخراً ، تطلب منه وتستحثه

لمهادنة ألد أعدائه ، ويرنو يبصره نحو طيبة فإذا بالناس هناك يتهمونه بالزندقة ويطلقون عليه اسم « المارق » ويتوعدونه بالقتل ويرفضون الإذعان لدعوة شريكه فى الحكم «سمنخ كارع» للتهاون ، مع أنه كان قد أظهر لهم رجوعه عند ديانة « آتون » وتعلقه بأهداب آمون ، ودليلنا على ذلك ، نقش مؤرخ من العام الثالث من حكمه شريكا لأخناتون وقد كتبه أحد كهنة معبده الذى شيده لأمون فى طيبة ويحوى النص ابتهالات لآمون) ثم يسرح يبصره إلى مستعمرات بلاده فى آسيا القريبة ، فيجدها قد تضاءلت وذهب معظمها إلى حد محاولة الاعتداء على مصر نفسها ، وأصبحت خزانة الدولة خاوية خالية من ذلك الدخل الضخم الذى كان يأتيها من هناك ...

لا بد وأن هذه المشاعر كانت تطحن جسمه العليل طحنا ولا بد أيضاً أنه قد مات فى أعقاب هذه السنة مباشرة ، لقد مات بعد أن حكم مصر لفترة تسعة عشرة عاماً أو أقل ، منها كما ذكرنا آنفاً ستة أعوام مشتركا مع أبيه فى الحكم ، والثلاثة عشر عاما حكمها بمفرده .

مات إخناتون واختفى دون أن نعلم ماحدث له فى نهاية عمره ولو أننا نرجح أن موته حدث نتيجة لمؤامرة دبرت لقتله .

ومما يؤسف له أننا لم نعثر حتى الآن على مقبرته ، ونذهب إلى حد التوكيد أنه لم يدفن فى المقبرة التى نقرها لأفراد أسرته فى التلال الحجرية الواقعة إلى الشرق من مدينة تل العمارنة ، وهى المقبرة التى لم يدفن فيها سوى ابنته الثانية التى ماتت فى سن مبكر وفى أثناء حياته . .

اختفى « إخناتون » واختفى معه اخوه وشريكه فى الحكم « سمنخ كارع » ، ولعل أهل طيبة اعتدوا عليه وقتلوه بعد أن تخلصوا من إخناتون ، وبقيت مصر دون وريث شرعى للعرش وبدأت المؤامرات تحاك من أكثر من جانب ، فهناك نفرتيتى الغاضبة الحانقة قد خلالها الجو ، وهناك الأم الملكية « تى » التى عاصرت البلاد فى أزهى فتراتها ، والتى شاركت زوجها فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة ، وبقيت متمتعة بمركزها الممتاز أيام ابنها « إخناتون » ، وهناك أيضاً كهان آمون المنتصرون الذين لم يألوا جهداً لاستعادة جبروتهم ، كل هذا كان يحدث والبلاد تسير بخطى واسعة نحو الهوة العميقة ، إذ ساد الفساد وانتشرت الفوضى وعم الفقر كل الطبقات بعد أن ضاعت المستعمرات المصرية فى آسيا وانقطاع ورود الجزية .

فى هذا الجو المشحون بكل عوامل الكراهية والحقد والفساد

تاتينا الأخبار ان « نفرتيتى » تحاول الثأر لنفسها ، فترسل خطاباً إلى الملك الحيثي « شوبيلوليما » تخبره فيه أن زوجها قد مات ولم ينجب منها ولداً ، وتطلب منه أن يرسل أحد أبنائه ليتزوجها ويتولى عرش مصر[1] . كان هذا التصرف من « نفرتيتى » بمثابه صنعة دنيئة على وجه مصر والمصريين ، يحدث هذا فى العصر الذى حاول فيه أكثر من ملك آسيوى أن يخطب لنفسه أو لابن من أبنائه إحدى بنات البيت المالك المصرى ، فكان يأتيه الرد دائماً بالرفض . . . واستجاب الملك الحيثي لهذه الدعوة وأرسل بالفعل أحد أبنائه الذى لم يكد يصل على مقربة من الحدود المصرية حتى داهمه بعض المصريين وقتلوه ، وقضوا بذلك على هذه المؤامرة ، او حسب رأى مصريى ذلك الوقت ، قضوا على هذه الخيانة العظمى .

(١) صمتت الآثار المصرية عن هذا الحادث ولم تذكره وثيقة ما ، إلا أن إحدى الوثائق الحيثية التى عثر عليها فى أطلال « بوغاز كوى » العاصمة القديمة لدولة الحيثيين ، ذكرت هذا الحادث ، وقام بتسجيله الملك « مورسيل الثالث » ابن « شوبيلوليما » .

العودة إلى القديم

وقف الحظ بجانب مصر فى هذه الأزمة ، وهيأ لها حفنة من الرجال احتفظوا برباطة جأشهم ولم يندفعوا فى معالجة الأمور ، بل وأظهروا قناعة لا مثيل لها ، إذ لم يرن احدهم نحو الاحتفاظ بالعرش فى أسرته أو توريثه لأولاده ، بل عاهدوا أنفسهم على أن يخلف الواحد منهم الآخر ، هؤلاء هم « آى » و « حور محب » و «رعمسيس » . أرادوا حلا سريعاً لتهدئة الموقف فالتجئوا إلى صبى فى سن الحادية عشر وهو « توت عنخ أتون » ونصبوه ملكا على مصر على أساس أنه قد اكتسب شرعية للجلوس على عرش مصر عن طريق زوجته « عنخ إس إن با أتون » ابنة إخناتون الثالثة ، ولست أشك ان هذا الاختيار حدث بإيحاء من الملكة الأم ، وإرضاءً لمشاعرها وتكريماً لها فهى التى بدأت باتخاذ الخطوة التى انتهت بنصر « امون » وكهانه .

كان « توت عنخاتون » صبياً حسن النية ، ضعيف الإرادة سارع باظهار ولائه لأمون وكهانه ، بل وأعلن خضوعه الكامل

بقبوله تغيير اسمه واسم زوجته بأن حذف منهما كلمة « آتون » مستبدلا إياها « بآمون » ، وهجر تل العمارنة واستقر فى طيبة ، وقام بترميم المعابد التى هدمها او خربها إخناتون ، وأرجع إلى آمون ما كان له من ضياع وثراء ، بل ضاعفه ، ولعل اللوحة التى أقامها فى الكرنك ونقش عليها نصاً طويلا متحدثاً فيه عن مشاعره نحو الماضى وطريقته التى اتبعها لمعالجة الموقف ، لخير ما يفسر لنا ما كانت عليه مصر فى هذه الفترة :

> « لقد تهدمت معابد الآلهة والآلهات ... وهجرت هياكلها ، وأصبحت أكواما عالية . . . وأصبحت الأرض شذر مذر ، وأدارت الآلهة ظهرها للبلاد .. وإذا صلى إنسان لإله يسأله النصح لا يأتى إليه أبداً ، وإذا دعا الإنسان إلهه أيضاً لاتأتى إليه أبداً ، لقد اوذيت قلوبهم ، لأنهم حطموا ماسبق عمله » .

هذا ما كان مصرى ذلك الوقت يراه بالنسبة إلى الأحداث التى صاحبت ثورة إخناتون ، لقد اعتبروها زندقة وهرطقة لم يحدث مثيلا لها فى اى عصر آخر ، وكان لزاما على « توت عنخ أمون » أن يرضى الآلهة الغضبى لعلها « تأتى إلى من يسألها النصح » وتعود إلى سيرتها الأولى بالنسبة إلى عبادها والمؤمنين

بها وفيما يلي نراه يفصح عما اتخذه من خطوات لإرضاء ابيه « آمون » أولا :

أولا : « وتداول جلالته مع قلبه فى المشروعات باحثاً عن اى عمل مفيد ، وباحثاً عما يخدم به أباه « أمون » ، فراى ان يصنع له تمثالا عظيما من الذهب الخالص ، يفوق ما كان مصنوعا من قبل ، وجعل محفة أبيه « أمون » (تحمل) على ثلاثة عشر حاملا ... بينما كانت محفة جلالة هذا الإله العظيم (تحمل) قبل ذلك على احد عشر حاملا » .

ثانياً : « رسم كهنة وسدنة للإله من أبناء نبلاء بلادهم ، كل منهم ابن رجل معروف ، ذى اسم معروف » .

ثالثاً « ضوعفت كل أملاك المعابد ؛ واصبح لها ثلاثة أمثال وأربعة امثال ما كان لها من الفضة والذهب واللازورد ... »

رابعاً : زيد خدم المعابد على حساب الملك وكانت تحتسب اجورهم على القصر ومن ثروة سيد القطرين » .

هذا وقد دلت الدراسات الطبية التى أجراها العلماء على جثة « توت عنخ أمون » ، أنه مات فى سن مبكر ولم يبلغ بعد العشرين من عمره ، ونظرا لأن النصوص التى وصلت إلينا من عصره تؤرخ أحداث عصره حتى العام التاسع من حكمه ،

فنستطيع أن نقول بأن فترة العمارنة قد انتهت حوالى (١٣٤٩ق.م) إذ أن هذا الملك كان يمثل لنا البقية الباقية من أولئك الذين بداوا حركة التوحيد والدعوة لآتون .

* * *

ارتقى « آى » العرش بعد « توت عنخ آمون » ولقدعرفناه من قبل مقربا إلى « إخناتون » وممن اعتنقوا ديانة « آتون » ، ولسنا ندرى الطريقة التى اتبعها ليكتسب شرعيته للعرش ، فالبعض يقول إنه تزوج من « عنخ إس أمون » أرملة « توت عنخ امون » ولكن هذا القول مشكوك فيه ولم تأتنا النصوص بما يثبته ، كما ان مقبرته التى نقرها فى منطقة وادى الملوك الغربى لم تحو رسوماً لسيدة غير زوجته الأولى « تىّ » مرضعة الملكة « نفرتيتى » .

لم يحكم « آى » أكثر من ثلاث سنوات وخلفه « حور محب » القائد المحنك الذى اضطر فى أول الأمر ولفترة قصيرة أن يسير مع التيار الجارف ويجامل « إخناتون » ، فتراه يطلق على نفسه اسم « با اتون إم حب » ، ويبدو انه استقر فترة فى تل العمارنة إذ عُثر على مقبرة له فى جبانتها ولكنه

لم يلبث ان هجر العاصمة الجديدة(١) واستقر فى « منف » . بعد أن عين قائدا عاماً للجيوش المصرية(٢) ، وبقى محتفظا بوظيفته هذه طوال عصور « إخناتون » و« توت عنخ أمون» و « آى » . واضطر فى آخر الأمر أن يسارع إلى طيبة ويرتقى عرش مصر بعد أن تزوج من الأميرة « موت ندجم » من أميرات البيت المالك القديم ، واستطاع هذا الرجل بجرأته وشدة مراسه أن يعيد لمصر ثقتها فى نفسها ويعيد الطمأنينة إلى النفوس ويقضى تماماً على كل عوامل الفتنة ومات عام (١٣١٩ ق٠م) تاركا وراءه عرشاً قوياً وبلاداً مستتبة بعد حكم قاربت مدته الثلاثين عاما ، ترك الدنيا ولم يحاول توريث العرش لأحد من أبنائه بل خلفه عليه صديقه « رعمسيس » وكان قد بلغ من السن عتيًّا . . . وبذلك تبدا فى التاريخ المصرى فترة الأسرة التاسعة عشرة .

(١) نقر « باآتون إم حب » مقبرة فى جبانة تل العمارنة ، ولـكن العمل لم يتم فيها ، وتدل حالتها على أن صاحبها لم يحاول مطلقا أن يستحث العمال فى إنهائها إذ لم تحو حجرتها الأولى إلا القليل من الرسوم .

(٢) أصبحت منف منذ عصر الملك « تحوتمس الأول» المقر الرسمي للقائد الأعلى للجيوش المصرية وكانت هذه الوظيفة تسند عادة لولى العهد ، الذى يتلقى تدريباته العسكرية فى ثكناتها ، ويبدو أن حور محب تولى هذه الوظيفة نظرا لعدم وجود ولى عهد للملك إخناتون .

المراجع

1) Wilson, John « The Burden of Egypt » P. 161 (The Univ. of Chicago 1951).

2) Ranke, Herman « Studies presented to F. Griffith » P. 412 ff (London 1932).

3) Breasted J. H. «Ancient Records of Egypt » Vol. II. P. 344 (Univ of Chicago Press 1906).

4) Breasted, J. H. ibid Vol. II P. 349.

5) Mercer, « The Tell - El - Amarna Tablets » Vol. I. P. 187.

6) Mercer, ibid Vol. II P. 15.

7) Mercer, ibid Vol, I. P. 20.

8) Dossin «Une Nouvelle Lettre d' El - Amarna» (Rev. d'assgrologie. Vol II).

9) Mercer, ibid, Vol, I P. 23.

(١٠) « مصر القديمة » سليم حسن الجزء الخامس صفحة ٢٥٨ .

11) Sethe, K. « Uebersetgung und Kommentav zu den «Alten Aegyptichen Pyramidenteten » B. IV Lieferug 2 Seite III ff.

12) Hassan. S. « Hymnes Religieux du Moyen Empîre » P. 157.

(١٣) « مصر والحياة فى العصور القـديمة » تأليف « دولف أرمان » و « هرمان رانـكه » — ترجمة عبد المنعم ابو بكر ومحرم كمال ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

14) Breasted, J. H. « the Dawn of Consciene» P. 275.

15) Junker, H. und Delaporte, L. «Die Voelker des Antiken Orients » P. 32 (1933).

16) Breasted, J. H. « Ancient Records of Egypt» Vol. II P. 263.

17) Breasted, J. H. ibid, Vol. II. P. 323.

18) Hassan, Selim, « the Great Sphinx and its Secrets » P. 79. ff Fig 656.

19) Glanville « J. E. Arch. » Vol. XV (1929) P. 5 ff.

20) Badawi, Ahmed « Memphis als Zweite Landishauptstadt im Neuin Reuhe » P. 69 ff. (Cairo 1948)

21) Meyer, Eduard « Geschichte des Altertums » Vol. II P. 324

22) Breasted J. H. « Ancient Reeords of Egypt » Vol II. P. 389.

23) Davies « the Rock Tombs of El - Amarna » Vol. V (1908).

24) Davies, ibid Vol. IV (1908).

25) Davies, ibid Vol. V (1908).

(٢٦) « الحضارة المصرية » تاليف جون ويلسن وترجمة الدكتور أحمد نخرى صفحة ٣٤٩ .

